الفصل الخامس

المسكوت عنه في صعيد مصر

◆◆◆

obeikan.com

obeikan.com

1 هذا الزمن الجميل

ما أن تميل الشمس للمغيب حتى تتوافد مواكب الفتية والفتيات بملابسهم الزاهية يحملون فوق رؤوسهم الصوانى الكبيرة المغطاة بفوط بيضاء أو مزركشة ممتلئة بالدجاج والحمام واللحوم وطواجن البامية والملوخية وأرغفة العيش الشمسى تتقدمهم مجموعات أخرى من الشباب يحملون دوارق قمر الدين والليمونادة والتمر هندى والخروب وصوانى صغيرة مملوءة بالتمر والبلح الصعيدى.

تتجه المواكب صوب موقع يتوسط القرية اسمه «الرهبة» ثم يتجمع الرجال يحملون المسابح فى أيديهم ويتلفح بعضهم بالشيلان الهندية ذات الألوان المشرقة ويتدثر بعضهم الآخر بثياب بلدية متواضعة وعلى الجانب الآخر تتجمع النسوة بعضهن يلبسن الملابس الحريرية الفضفاضة ويغطين وجوههن بالبيشة السوداء وأغلبهن من النساء الأخريات اللواتى ينتمون إلى الفئات الكادحة من الفلاحات والرقيق السود سافرات الوجوه يتحركن بحرية وتقمن بالتخديم على الفريقين من الرجال والنساء وقبل أن يصعد المؤذن إلى قمة الجامع الصغير تنطلق الزغاريد مرحبة بقدوم قسيس القرية متأبطا ذراع شيخ مشايخ القرية ويحيط بهم كبار الأعيان من المسلمين والأقباط ثم يبدأ الإفطار على شرف عائلة الضبع كبرى العائلات القبطية فى قريتنا ويتعالى أصوات الصبية الصغار وتختلط بمناقشات وجدل الكبار حول أمور الدنيا والحياة المشتركة على هذه الأرض الطيبة يتحدثون عن المحاصيل

الزراعية ومشاكل الري ومشروعات الزواج والمصاهرة والمدرسة الجديدة التي قرروا أن ينشئوها على نفقتهم الخاصة لأن المدرسة الحكومية الوحيدة في القرية لم تعد تكفي لتعليم أبناء وبنات القرية ثم يتبادلون النكات والقفشات مع ضابط النقطة ومهندس الري الوافد من قرية أخرى وتنهمك النسوة في أحاديث جانبية واتفاقات خاصة بتقسيم الأيام بينهم للفوز بأم أحمد وفريقها النشط من الفتيات المشهود لهن بالكفاءة في إعداد الكحك والغريبة ولوازم العيد والاتفاق مع كارمانز الخياطة الماهرة للبدء في حياكة ثياب العيد وهكذا كانت تتواصل حلقات الود وتتلاقى النفوس الصافية في سلاسة وعذوبة وإخاء إنساني فريد.. هكذا كنا نعيش أيام رمضان في قريتي الزرابي في جنوب أسيوط لم أعرف يوما ما هو الفرق بين عماتي وخالاتي الحقيقيات زينب وأسماء وحفصة وحفيظة وحميدة وزكية وفوزية وبين خالاتي وعماتي القبطيات شفيقة وجبونة ونجمة ولولو وكنا نتقاسم حوائط المنازل وأسرار البيوت كما كنا نتقاسم الأفراح والأحزان.

كان أهل العروس مسلمين وأقباط يصرون على أن تخرج ابنتهم من بيت الجار مسلماً أو قبطياً يزفونها إلى بيت العريس.

كان جدي يمضي أمتع أوقاته في بيت قسيس القرية «أبونا قزمان» و«أبونا مرقص» وكنت دائماً أراهم في مندرة جدي حتى ساعات متأخرة من الليل يتمازحون وتعلو أصوات ضحكاتهم الصافية العذبة وكانت جدتي لا تجد شقيقة لها أقرب من جدتي الأخرى القبطية أسماء تودعها أسرارها وتتشاور معها في أدق شئون وخفايا حياتها ولا تتخذ قراراً إلا بمشورتها.. وعندما انتقلت الأسرة في أوائل القرن إلى القاهرة شاءت الظروف أن يكون جيرانهم عائلة شكر الله بك القبطي الشهم الذي أعطى له جدي توكيلاً عاماً كي يتولى نيابة عنه شئون الأسرة

أثناء غيابه وكانت زوجته «الست أم شاكر» أصدق صديقات جدتى وخير تعويض لها عن أحبابها الذين تركتهم فى القرية.

أين هذا الزمن الجميل؟ لقد تداعت هذه الذكريات وأنا أتناول إفطارى السنوى لدى إحدى الصديقات الغاليات وداد مترى التى تحرص منذ سنوات طويلة على دعوة جميع أصدقائها وصديقاتها لتناول الإفطار فى اليوم الثالث من رمضان كل عام وقد أصبح هذا اليوم مقدساً لدينا نحرص على حضوره مهما كانت ظروف المرض أو صعوبة المواصلات أو مشكلات البنين والبنات وكبار السن فى أسرنا وهكذا تظل وداد مترى نموذجاً أصيلاً تعكس عراقة ونبل هذا الشعب الطيب الذى ننتمى إليه جميعاً مسلمون وأقباط.

صوت الجامعة – ٢٨ نوفمبر ٢٠٠١

2 التوأمان

كان التوأمان يتشابهون فى الملامح، عيون واسعة يشع منها الذكاء والطيبة الممزوجة بالانكسار، وأنف مفرطح وسمرة مشوبة باحمرار داكن وقامة فارهة وملابس شديدة التواضع وحيوية ذهنية غير مسبوقة وكانت هناك مباراة صامتة بينهم وبين حفيد العمدة العفى، ذى الرقبة القصيرة والتى يزيدها الامتلاء قصراً، ودائماً يأتى بملابس جديدة وزاهية الألوان هذا الصبى كان جده يمتلك نصف القرية أرضاً وبشراً ونفوذاً وكان النصف الآخر من سكان القرية يتحاشونه وإن كانوا لا يخشونه.

كان الصبى يريد أن يستحوذ على كل شيء: التفوق الدراسى رغم قدراته العقلية المتواضعة، الثراء والنفوذ، وأراد أن يستقطب هذين الأخوين ولم يفلح رغم المغريات التى كان يقدمها لهما. وفى يوم من الأيام لاحظ المدرس أن أحدهما كان يأتى. والآخر يغيب وفى اليوم التالى كان الغائب يحضر، ويغيب الذى كان حاضراً بالأمس وعندما كان المدرس يسأل أحدهما عن سبب.غياب الآخر كانت الإجابة أنه مريض وأخيراً قرر المدرس أن يختلى بأحدهما وشدد فى الأسئلة حتى انتزع منه الاعتراف وعرف سر التناوب فى الغياب. وإنهما لا يملكان سوى حذاء واحد يتبادلانه ولذلك كان لابد أن يحضر كل منهما يوماً ويغيب فى اليوم التالى كى يعطى الفرصة لشقيقه!!

جريدة الأهالى ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

3 || الجدة صفصافة

صعدت جدتى «صفصافة» الكفيفة على سطح المنزل عبر السلالم القديمة قدم لبيت العتيق والذى شهد مولد وحياة ورحيل سبعة أجيال وأخذت تتحسس رغفة العيش الشمسى المرصوصة فوق الردة على المقارص الطينية كى تتأكد من نها خمرت وأصبحت صالحة للخبيز وبعد أن تممت على جميع رصات العيش لتفتت إلى «مغربية» الشغالة وسألتها هل الفرن حميت.. ولما أجابتها بالإيجاب ذهبت إلى مكان الفرن للتأكد بنفسها وهى لا تبعد سوى عدة أمتار عن مكان لعيش المرصوص فى الشمس ويظللها خص وتضم إلى جانب الفرن كانونا صغيراً يتكوم عند فوهتها السفلية أكوام الوقيد.. اقتربت الجدة «صفصافة» من الفوهة لعلوية للفرن ومدت يدها داخل الفرن بحذر ثم نادت على «مغربية» وطالبتها بوضع المزيد من الوقيد والانتظار حتى تحمى الفرن ثم تناديها لأنها نازلة إلى الرواق لوسطانى لإتمام عجين الهايش هبطت جدتى ببطء فوق السلالم التى تتأرجح تحت أقدامها وعرجت على الكانون الكبير الذى يتصدر الفسحة ورفعت غطاء الحلة بطرف طرحتها ثم أشاحت بوجهها تحاشياً للنار الكثيف المتصاعد عن سليقة اللحم وأخرجت قطعة لحم ووضعتها فى البرام ثم جستها بأصابعها وعندما تأكدت أنها استوت، أحضرت ٣ مراجيس متوسطة الحجم ووضعت ٤ قطع لحم فى كل مرجسية ومغرفة سليفة مع قليل من التقلية بنية اللون ونادت على مغربية كى ترصهم فوق الصينية النحاس الكبيرة وتحملهم إلى سطح المنزل لإتمام طهيهم فى

الفرن بعد الانتهاء من الخبيز.

كانت الجدة صفصافة تحفظ كل تفاصيل البيت الكبير بصعوداته وهبوطاته «بصاعده وبهابطه» تعرف مكان الزير ومحل الأدب وعدد السلالم بدون درابزين والسلالم بدرابزين والسلالم الصغيرة فى الوصلات بين الغرفة القبلية والرواق البحرى وكانت تقوم يومياً بقياس الفراخ كى تتأكد من وجود بيض كما كانت تقوم بتنظيف الزير وتبخيرها مرتين فى الأسبوع.

كانت تعد الشاى وتقدمه مع بعض القراقيش للشيخ خالد مقرئ الأسرة الذى كان يأتى يومياً بعد العصر لقراءة بعض آيات الذكر الحكيم وكان تقوم بتخزين الكشك والبلح الصعيدى فى أزيار خاصة داخل الخزانة الجوانية كما كانت تقوم بتنظيف بنية الحمام وتبخيرها كل أسبوع واعتدنا أن نأكل من يديها الحمام بالفريك كل يوم اثنين وكانت مغربية تساعدها فى نتف ريشه ولكنها كانت تتأكد بنفسها من إخراج جميع مكونات أحشائه وتقوم بتطهير مكانها بالدقيق والملح وتغسلها عدة مرات قبل حشوها بالفريك.

هذه بعض لمحات من حياة جدتى صفصافة التى أصيبت فى بصرها عندما كانت طفلة إثر إصابتها بمرض الجدرى وعاشت طوال حياتها حبيسة الجدران الأربعة فى البيت الكبير وكانت تتواصل مع العالم الخارجى من خلال عيون أبناء وأحفاد شقيقتها الجدة آمنة.

وللحديث بقية.

الدوار – مارس – ابريل ٢٠٠٣

4 هدية خالتي بخيته

كنت فى إحدى زياراتى الدورية لقريتى الزرابى ودائماً أبدأ جولاتى بالقرية بزيارة الكنيسة والاطمئنان على الأب قزمان راعى الكنيسة المصرية، وهى من أقدم الكنائس فى الجبل الغربى ثم الأب مرقص أو الأب إبراهيم فى الكنيسة الكاثوليكية، ثم أطوف بالمدارس الابتدائية والإعدادية فالثانوية المشتركة، وفى المساء تبدأ زيارتى للأهل فى منازلهم وأستهل صباح اليوم التالى بزيارة نقطة الشرطة والجمعية الزراعية وبنك القرية، وفى إحدى هذه الزيارات وكانت عقب فوز الكاتب الكبير «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل كنت أقف فى ساحة السوق وتسمى (الرهبة) لتبادل الدردشة مع بعض المدرسات أثناء عودتهن إلى منازلهن فإذا بى ألحظ إحدى النساء تلبس شجة سوداء باهتة اللون تعود إلى الخلف، وقد أخفت نصف وجهها بطرف الشجة وتنادينى الدكتورة، فتركت الجمع الذى كنت أتحدث إليه واتجهت إليها مرحبة (أهلاً وسهلاً يا خالة، خير تحت أمرك) نظرت إلىّ بعيون كليلة وانهمكت فى إخراج صرة صغيرة من سيالتها وأخذت تفك الصرة بمثابرة، وأنا أقول لها (يا خالة، قولى لى إنتى عايزة إيه وأنا تحت أمرك. ولا يمكن حاقبل منك مليم واحد عايزة دوا أو جلابيه أو طرحه، قولى وحياة أبوكى) لم تلتفت لكلامى وبعد أن فكت ٧ عقدات أخرجت عدة أوراق مالية بالية من فئة القروش العشرة التى انقرضت منذ زمن طويل وعدتهم أمامى ٦٠ قرشاً، (والنبى يا دكتورة إذا كنتو حتجيبوا هدية للراجل اللى بيكتب اللى خد الجايزة الكبيرة جوى).

فتساءلت. تقصدى مين؟، قالت اسمه نديب مش فاكره باجى اسمه.. هل تقصدين نجيب محفوظ هتفت بابتسامة أضاءت وجهها المكدود قائلة أيوه (هو والنبى يا دكتورة خدى منى الستين قرش دول وحطيها على فلوسكم علشان الهدية دى حاجة متواضعة من خالتك بخيتة علشان الراجل ده رفع راسنا فى بلاد بره) لا تعليق.

هذه واحدة من النساء الفقيرات فى صعيد مصر.

جريدة الأهالى – ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

obeikan.com

5 طفل من سوهاج

جاءت المرأة تجر خلفها طفلتها البالغة من العمر خمس سنوات، وتحمل الأخرى التى لم يكتمل بعد عامها الأول، والتى لم تر والدها لأنه رحل قبل مولدها بعدة أشهر. الولد «عباس» الذى لم يبلغ بعد سنواته العشر، بدأ يزوغ من المدرسة، ويذهب إلى الغيط مع رفاقه لجمع اللطع، ولما علمت الأم نهرته، وذهبت إلى ناظر المدرسة وطلبت منه التشديد على عباس، لأنه يتيم الأب ويحتاج إلى الحزم.

وعندما فشلت محاولاتها جاءت إلى الدكتورة كى تستشيرها فى حالة عباس. أرسلت على الفور لاستدعاء الولد كى أسمع منه خصوصاً وأنه كان من أذكى أطفال القرية، ومعروف بين زملائه بالالتزام وحب العلم، فماذا حدث له؟ جلس الصبى يسرد قصته: إنه يتقاضى يومياً ثلاثة جنيهات نظير العمل فى الغيط، بينما لا تستطيع أمه أن تعطيه مصروفاً يومياً أكثر من عشرة قروش. والمدرسون لا يرحمونه لأنه شاطر ومنظم وكراريسه مرتبة ونظيفة ويؤدى واجباته المدرسية بانتظام، فهم يطلبون منه أن يشترك معهم فى الدروس الخصوصية لمجموعات التقوية ليس كتلميذ ولكن كمساعد لهم يشرح لزملائه الدروس ويراجعها معهم، ويتابع كراريسهم، وعندما أبدى تذمره عاقبوه، ولما اشتكى همه لبعض أقاربه من الصبية الذين يكبرونه فى العمر، نصحوه بالتزويغ والذهاب معهم إلى الغيط.. ولما علم المدرسون، اتفقوا معه على أن يتركوه، ولا يدققوا معه عند التزويغ، مقابل أن يقتسم معهم اليومية التى يحصل عليها.

لقد تابعت اعترافات عباس بدهشة ممزوجة بالأسى ثم غرقت فى دوامة من الحيرة، ولعنت الأيام التى أتت لنا بمسئولين عن التعليم، سماسرة قبل أن يكونوا مربين جعلوا كل شيء حتى العلم وبراءة الأطفال سلعة قابلة للبيع والشراء!

جريدة الأهالى – ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

obeikan.com

6 زيارة لقرية حزينة

كانت زيارتى لقريتى فى عيد الأضحى، تختلف عن كل ما سبقها من زيارات سواء فى الأعياد، أو عقب كارثة السيول أو تجربة الانتخابات النيابية أو فترات الإرهاب العصيبة، وأيضاً فى الأفراح، والمآتم العائلية.

كثفت هذه الزيارة أحزان الفقر والفجيعة ، ولوعة الأسى، على ضحايا القطار المشئوم ، كما جددت الحزن الجماعى العميق على أحوال الوطن ، وما آل إليه من اهمال المسئولين ، وفساد الحكم المحلى، وتجبر واستعلاء أولى الأمر من حكام العاصمة ، وسلاطينها، فتحت المنادر لتلقى العزاء، بدلا من تهانى العيد.

هرول رجال القرية وشبابها إلى موقع الحادث للتعرف على بقايا الجثث المتفحمة . وسارع البعض الآخر إلى المستشفيات للتعرف على المصابين وانكفأ الآخرون على أحزانهم، وسارعت النسوة إلى نصب المعادات للندب واللطم ، وبدأت ترتفع أصوات المعددات حول القبور، وفى الساحات الصغيرة يجترون أحزان الماضى، ومآسى الحاضر، وسارع المقرئون والفقهاء إلى المساجد الصغيرة ،لأداء صلاة الغائب ،وتجمعت فلول الأطفال اليتامى بثيابهم القديمة الرثة يبكون تارة ويلهون تارة ..يسيطر عليهم إحساس شامل بالتيه ، والضياع يرددون الأغانى الحزينة ويرسمون للحزن الصعيدى مجرى جديداً يضيفونه إلى دفتر الحزن الفرعونى والقبطى والإسلامى. تراكمات من الأهوال والنساء الملتاعات بعضهن حوامل ويحملن أطفالا رضعا، ويجررن آخرين والأمهات الثكالى ينتظرن عودة الابن

الوحيد، والعائل لأسر ضمرت شرايين الحياة بين جدران بيوتها وتحجرت العيون ، وجفت المآقى، حتى الدمع أصبح شحيحا . يا للرحمة ، يتضرعون إلى السماء كى ترحمهم ببعض قطرات الدمع كى يفرجون عن كربهم .

يصيح صبى فى العاشرة : «الصعيد طول عمره ملطشة ، قتلوا أخويا ظلما فى جامعة أسيوط بسبب الإرهاب وأبويا مات فى السيول . وأخويا اللى فاضل سافر مصر يدور على شغل وبعت لنا جوابا يقول إنه جاى على العيد، ومعاه كسوة أخواتى. يا رحمن ارحم عبيدك».

قمت بجولة سريعة شملت القرى المجاورة لتقديم واجب العزاء والمواساة . كانت جميع حواسى فى حالة يقظة، تتجاوز حالة الحزن الشامل ، الذى لف الجميع وارتسم على الوجوه الصارمة، وظهر فى ارتعاشات الأيدى والأكتاف . تذكرت كلمة جدتى (أن الرجالة يحزنون بأكتافهم) ، وبالفعل وجدت أكتاف الرجال قد انهدلت وقد أذل الحزن أعناقهم ، فبدت الرؤوس مطأطأة، والعيون يملؤها مزيج عجيب من القهر، والحزن القديم، الذى يتجدد كلما استجدت مصيبة من مصائب القدر. ينتحى بى أحدهم جانبا ويقول فى صوت خافت : «نحن نؤمن بالقضاء والقدر، وأن الأعمار بيد الله. ولكن هذه الكارثة ليست قضاء وقدراً. إنها إهمال، واحتقار للصعايدة ، واستهتار بالبنى آدميين . احنا مش مصريين ذى الباقيين؛ ليه الحكومة ما تفتكرناش غير بالمصايب، والإهانات عايزين يلغونا من الخريطة ما بيقدروش. احنا اللى أسسنا مصر، وطلع منا كل العباقره اللى رفعوا رأس البلد فى كل مكان ».

فى اليوم التالى للفجيعة ، تجولت بين منادر الرجال وجلسات النساء كان الرجال يجلسون فوق المصاطب خارج المنادر، وفوق الدكك الخشبية المفروشة بالأكلمة

المحلية، داخل المنادر، والنساء كن يفرشن الأرض ويستندن إلى المساند القطنية التقليدية ويبدأن فى التعديد لمدة ثلاثة أرباع الساعة ثم تبدأ إذاعة القرآن الكريم أو تقوم المعددة بسرد أشعار مأثورات الحزن المتوارثة.

استمعت إلى أحاديث الرجال .. كانوا يتحدثون عن مصير العائلات التى فقدت عائلها، سواء كان الأب أو بعض الأبناء ووعد بعض الميسورين منهم على التكفل بمصاريف المدارس والتعليم للأطفال الذين فقدوا ذويهم .

فوجئت برجل مسن وقور يدخل المندرة ، فى حالة ثورة شديدة ويوجه الكلام لى (يا دكتورة اللى ماتوا الله يرحمهم ، ويصبرنا على فراقهم لكن فين جثثهم علشان نعرف لهم قبر نزوره ، ونعمل إيه فى المفقودين ونصرف لهم معاش أو إعانة إزاى ومنين؟ احنا يا دوبك بنستر نفسينا.. فين الحكومة أو فين الفلوس والإعانات اللى نازلة عليهم انت ناسيه إيه اللى حصل فى كارثة السيول؟).

تذكرت على الفور ماذا حدث عندما أخذت سيارة لورى مملوءة بالمعونات من الأصدقاء وأهل الخير وتوجهت بها إلى القرى التى أضيرت من السيول ومنها قريتى ووجدت أوضاعا يندى لها الجبين فقد كتب المسئولون فى الوحدة المحلية أسماء أقاربهم الميسورين بدلا من أسماء المنكوبين ، وحصلوا على المعونات ووجدت بعض الفقراء جالسين بجوار بيوتهم التى تهدمت بفعل السيول يرفضون مغادرتها حشية أن تأخذها الحكومة ولا تعوضهم عنها وعلمت من أقاربى أن البطاطين الجديدة التى قدمتها الدول الصديقة لتعويض المنكوبين قد تم الاستيلاء عليها ووزعت عليهم بطاطين قديمة .

الخوف يسيطر على أقارب وأهالى ضحايا القطار المشئوم خشية الألاعيب، وحرمان الفقراء مرتين : الأولى من ذويهم الذين فقدوهم ، والثانية من التعويضات

التى تقررت لهم . كيف نضمن وصول التعويضات إلى مستحقيها دون المرور بجيش الفساد المتمثل فى الموظفين المحليين ، الذين يفتقرون إلى الأمانة والنزاهة ويستحلون لأنفسهم تعويضات الضحايا.

لاحظت أن بيوت القرية نظيفة من الداخل ولكن تتراكم أمام عتباتها أكوام القمامة وتئن شوارع القرية وأزقتها من روث البهائم والنفايات وقد أدهشنى انكفاء كل أسرة على فضائها داخل المنزل وكأن الفضاء الخارجى لا يخصها . فليس هناك اهتمام عام بنظافة القرية التى تضمهم جميعا . على الفور قفز إلى ذاكرتى هذا المشهد المتكرر فى شوارع القاهرة المكتظة بالبشر، وبأكوام القمامة واقتصار النظافة على البيوت من الداخل هل هى ظاهرة قومية فى ريف مصر وحضرها؟!

أثناء مرورى بالبنادر قابلت فى السوق بعض شباب القرية الذين يعملون فى القاهرة. استوقفونى ودار الحديث عن القطارات المخصصة لأهالى الصعيد وهل تصلح للاستخدام الآدمى؟

قال أحدهم إن نصيب الصعيد ٧٧١ قطارا من جملة القطارات فى مصر، ٨٠٪ منها أحيل إلى الاستيداع ولكن المسئولين فى السكة الحديد استخسروها فقرروا تخصيصها للصعايدة .

عربات الدرجة الثالثة يجب إعدامها لأن الحيوانات سترفض استخدامها فما بالك بالبشر، تذكرت الرحلة السنوية التى كنا نقوم بها إلى قريتى لقضاء الأجازة الصيفية وكيف كانت القطارات تحمل لنا البهجة بدواوينها الجميلة وكراسيها الجلدية النظيفة وصور الآثار تملأ الجدران وكان منظر النيل والخضرة على جانبى الطريق يزيد الرحلة بهجة ، وامتاعا.

والآن ندفع ٨ أضعاف ما كنا ندفعه للدرجة الأولى والثانية والكراسى مخفوسة،

ولم تعد هناك دواوين والمراحيض تثير الغثيان، والأرض تشكو من القذارة والفئران تتنزه فى الطرقات والصراصير تتجول فوق الستائر البالية .

فما بالك بالدرجة الثالثة ، الخانية من المراحيض والحنفيات وطفايات الحريق وسائر مسلسل الامتهان البشرى.

لاحظت فى جولاتى المسائية أن معظم شوارع القرية مظلمة . سألت عن الوحدة المحلية التابعة لوزارة الحكم المحلى والمجلس الشعبى المحلى المنتخب ومسئولياتهم عن نظافة القرية وإنارتها. أخبرونى أن رئيس الوحدة المحلية لص «قرارى» ورغم الشكاوى الكثيرة التى قدموها ضده ، ولكنه مستمر فى موقعه منذ عشرين عاما . لا يتزحزح .. يا الله .. ما يحدث فى العاصمة يتكرر فى الريف، أما المجلس المحلى المنتخب فهو متقاعس، وفاقد للهمة والحماس، ولا يمارس سلطاته ، هل هو فرع لممثلى الصعيد فى مجلس الشعب، أخبرونى أن هناك مخصصات للإنارة تصل إلى ٧٥٠ لمبة كهرباء لإنارة شوارع القرية ولكن الوحدة المحلية لا تستخدم إلا ربع هذه الكمية والباقى يسرق، ويباع وهناك أشياء كثيرة مماثلة . لاشك أن المحليات فى مصر تحتاج إلى هزة، ونفضة قوية لضمان تحسين أوضاع الريف خصوصا فى صعيد مصر. فالموارد متوافرة ولكنها مسروقة من جانب المسئولين فاقدى الضمير والذمة ..

وبالمناسبة أين أجهزة الرقابة مثل الجهاز المركزى للمحاسبات والرقابة الإدارية إننى أعلم أنهما يقومان بدورهما ولكن أين المردود الفعلى لهذا الدور؟

جريدة الأهالى ١٥/ ٣/ ٢٠٠٢

7 حوار على الشاطئ

ينتشر على شواطئ مطروح الأطفال القادمون من جنوب مصر يبيعون الملابس الجاهزة من إنتاج المصانع «فرز ثالث». وقد أثار انتباهى صوت طفل لا يتجاوز العاشرة يلح إلحاحاً موجعاً على سيدة تلبس قناع الاستعلاء المزيف وتتحدث بلهجة خليجية مصرية طالباً منها أن تزيد ثمن البشكير نصف جنيه لكى يوفى ثمنه للمعلم سألته بفضول: من هو المعلم؟ قال (الأستاذ اللى بيأجرنا من بلدنا ويجيبنا هنا ثلاثة أشهر ويسرحنا على البلاج بالبضاعة وفى آخر المدة نرجع إلى بلدنا سوهاج ومعانا مصاريف المدرسة والكسوة «وقرشين» أديهم لأبويا مساعدة فى مصاريف البيت).

سرحت طويلاً فيما قاله هذا الطفل الذى بهتت ملامح طفولته تحت وطأة الفقر والذى يكاد يلقى بأعباء البضاعة لكى يشارك باقى الأطفال اللعب على الشاطئ والنزول إلى البحر. تساءلت: أين قوانين حماية الطفولة وهل تشمل هذا الطفل الفقير وأمثاله أم أنها تقتصر على البيانات الدعائية التى تصدرها المؤتمرات؟. تحدث بائع الإيشاربات موضحاً لى التناقض القائم وهو شاب تجاوز العشرين قال: أنا خريج كلية التجارة جامعة جنوب الوادى وأشتغل حالياً بالتجارة سألته ما المقصود بالتجارة؟

أجاب: أقوم بتأجير جزء من الشاطئ من محافظة مطروح فى إطار المشروع الذى يشاركنى فيه مجموعة من زملائى من خريجى كليات الآداب والحقوق والتجارة

بجامعات الصعيد ويهدف هذا المشروع إلى حل مشكلة البطالة بين الشباب ومشكلة الفقر المنتشر فى الصعيد الذى يعوق معظم الأطفال عن إتمام تعليمهم. ونقوم بإحضار حوالى ٢٠٠ طفل تتراوح أعمارهم بين ١٣ و١٨ عاماً نجمعهم من مختلف قرى سوهاج ونستأجر لهم مكاناً للنوم ونتولى تكلفة سفرهم ومأكلهم وإقامتهم علاوة على تخصيص ١٠٪ حصة لهم من أثمان البضاعة التى يقومون بتسويقها على شواطئ مطروح. وفى نهاية الصيف نعيدهم إلى أهاليهم بعد أن يكونوا قد ادخروا مبلغاً من المال يكيفهم شر المذلة وتسول نفقات تعليمهم وكسوتهم وأقواتهم. ويواصل بائع الإيشاربات حديثه والأسى يكسو ملامحه يقول: إننا نشكو من قسوة الحكومة علينا فقد أصدروا قانوناً يمنع عمالة الأطفال وهذا شيء جيد، ولكن ما هو البديل لهؤلاء الأطفال المعذبين التعساء؟ هل نتركهم للفقر والعجز عن إتمام تعليمهم تنفيذاً لهذا القانون.. هذا القانون قاصر وجائر وبرغم أنه يحمل فى ظاهره الرحمة فإنه يحوى فى باطنه العذاب والمزيد من المعاناة لهؤلاء الأطفال ويجب أن يسعى المسئولون لحل مشاكل الطفل الصعيدى الفقير خصوصاً أن الاهتمام كله منصب على أطفال العاصمة، فهل يستجاب لنداء هؤلاء الأطفال القادمين من صعيد مصر؟!.

الأهرام ٧/ ٩/ ٢٠٠٢

8 الداية

كانت أمى خيرة داية القرية الشهيرة افريقية ضخمة ذات بنيان متين وتطل علينا بوجه يفيض حناناً مع ابتسامة عذبة لا تفارقها. وكان أبناء وبنات القرية يعتبرونها أمهم الثانية لأنها شهدت ولادتهم على يدها. تلقت تدريبها فى مستشفى أسيوط الأميرى وظلت تمارس مهنتها أربعين عاماً وتدرب على يديها بعض الدايات الأقل مهارة. كانت تسكن فى أطراف القرية ويرتفع أمام منزلها شجرة جميز كبيرة كان يسرح تحتها البط والوز والدجاج والماعز الذى كانت تربيه أمى خيرة. كانت تقوم بتوليد النساء الميسورات والفقيرات وكانت تحصل على عشر جنيهات من المرأة الميسورة وتحصل على الدعاء من المرأة الفقيرة إذ كانت تصر على عدم أخذ أى مقابل بل كانت تقوم برعاية الوالدة والمولود لمدة أسبوع تزودهم بالطعام من البيض واللبن والفروج وملابس للصغير دون مقابل.. كانت تحمل «بقجة» تحوى الأدوات الضرورية للولادة «أمواس وقطن وشاش وسبرتو» وكانت تجوب القرية من شرقها إلى غربها ومن قبلى إلى بحرى فى جميع أوقات الليل والنهار حتى الفجر كانت تتولى أجلاس المرأة الوالدة فى وضع القرفصاء وتثبت أقدامها فوق مخدتين إذا كانت ميسورة وفوق قالبين طوب إذا كانت فقيرة وتتعالى أصوات المحيطين من قريبات الوالدة «عينى صغيرك عينى صغيرك» ثم تنطلق الزعاريد عندما تظهر الرأس وحينئذ تقوم أمى خيرة بسحب المولود وتلفه فى بشكير وتضعه فى حجر الجدة. كانت النساء يتلهفون لمعرفة نوع المولد ولد أم بنت وكانت أمى خيرة تشخط

فيهم محذرة من تشتيت انتباهها قائلة «حياة الوالدة قبل المولود يا ناس..» ثم تواصل باقى مهمتها فى الاهتمام بالأم حتى يتم استخراج الخلاص وتصفية الدم المتبقى من الولادة ثم تقوم بتشطيب الوالدة بمياه ساخنة وتلفها وتحملها وتضعها فوق السرير.

ظلت أمى خيرة تمارس هذا الدور ٤٠ سنة ولد على يديها أجيال عديدة من أبناء وبنات القرية الذين أصبحوا فيما بعد آباء وأمهات وقامت معهم بنفس الدور. وكان الأطفال يقومون بزيارتها فى الأعياد يحملون لها الهدايا من الكعك والبسكويت والبلح والقصب والجميز. وكانت موطن أسرار النساء والرجال يذهبون إليها طلباً للنصيحة أو لإخفاء حجج أرض أو بيوت أو استشارة فى تزويج البنات أو بيع أو شراء أرض أو المواشى، كانت مستودعاً أميناً للأسرار والخفايا. وكانت تقوم بتوليد نفسها بمساعدة «بنت رخام» وقد أنجبت ٦ بنات وأولاد. ويوم رحيلها خرجت القرية عن بكرة أبيها لوداعها.

الدوار: أكتوبر – نوفمبر ٢٠٠٣

9 ميراث البنت

بعد دفن الأب وتراجع الحزن جلس الأبناء (ثلاثة أبناء وبنت واحدة) لتقسيم التركة من الأراضى الزراعية والمواشى والبيوت. كان الأب قد كتب للأولاد معظم التركة من الأفدنة والمنازل والأموال وخص الابنة بجزء ضئيل تمثل فى مقبرة ونصف فدان وقدر من المال السائل. تعالت الأصوات واحتدم الخلاف بين الفتاة وأشقائها وتبادلوا الاتهامات وتمزقت العلاقات الأسرية بعد أن أقسم كل منهم ألا يدخل منزل الآخر أو يتبادل معه المودة أو يمنحه الثقة وظل كل منهم يغذى أبناءه بروح الضغينة والشك ضد أبناء الآخر. هذا المشهد الذى يتكرر فى معظم قرى الصعيد أعاد إلى ذاكرتى قصة عمتى التى حرمت من حقها الشرعى فى الميراث ولم تحصل سوى على قدر ضئيل من نصيبها بحجة أن الأرض لا يجب أن تخرج من زمام العائلة إلى عائلة أخرى. ورغم انتشار التعليم بين العديد من الأجيال من أبناء وبنات الصعيد واقتصار الزراعة على متوسطى التعليم والأميين وانفتاح مجالات عديدة للعمل فى مختلف المهن إلا أن كل ذلك لم يغير من القيم الراسخة للمجتمع الزراعى التقليدى. فى سوهاج طلب منى بعض الأصدقاء التدخل لإقناع بعض الوجهاء من أبناء ضهطا وجرجا وطما وجهينة بضرورة منح شقيقاتهم حقوقهن فى ميراث آبائهم من الأراضى الزراعية نظموا لنا عدة جلسات فى منادرهم وظللت بضعة ساعات أنصت باهتمام وصبر لمراوغاتهم وتحايلهم على القانون والشرع رغم أنهم كانوا يضمون بين صفوفهم المستشار والطبيب والمعلم وفشلت فى إقناعهم

بضرورة إنصاف شقيقاتهم وإزالة الغبن عنهن وحمايتهن من الإحساس بالظلم الذى يولد الحقد والإحباط.

وفى قنا واجهت نفس المشكلة فى فرشوط ونجع حمادى وأبو تشت وأرمنت ودشنا حيث تنقلت بين الدواوير والمضايف واستمعت إلى شكاوى النساء داخل الأروقة الرحبة فى البيوتات القديمة وتكرر الموضوع فى قرى أسيوط الحوانكة والزرابى ودير الجنادلة والمشايعة والبلايزة وأبو خرص حيث فوجئت بتصنيفات غريبة للمرأة التى تجرؤ على مطالبة أشقائها بنصيبها فى الأرض إذ يعتبرونها مشاغبة ومارقة ونكدية وحقودة والمفروض أن تكون طيبة أى مستسلمة وحنونة أى لا ترفع عينها فى وجه أخوتها الذكور وعليها أن ترضى بما يجودون به من كميات محدودة من الفريك والسمسم ويكفى أن يظل بيت أبوها مفتوحاً لها فى أى وقت سواء فى حالة غضبها من زوجها أو مرضها أو للزيارات المعتادة. لقد آمنت كثيراً بأن منظومة القيم والتقاليد فى الصعيد أقوى مائة مرة من تأثير التعليم أو الثقافة أو تعاليم الدين أو التشريعات القانونية. لقد رأيت قيم العدل والاستنارة والإنصاف والأمانة تتراجع أمام تغلغل قيم القبلية وسطوة الأنانية الذكورية وشعرت بالأسى والحزن ولكن سرعان ما أفقت من دوامة الأحزان وأدركت أن مواجهة هذه السلبيات التى تنخر فى نسيج حياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية والعائلية يتطلب ما هو أكثر من التشريعات والقوانين إذ لابد من شحذ الإرادة الجماعية للمفكرين والمستنيرين من رجال الدين وعلماء الاجتماع ونشطاء حقوق الإنسان للتعاون من أجل تفعيل الحق وإنصاف الفتاة الصعيدية وتأكيد مشروعية حقها فى الميراث فى الأراضى الزراعية أسوة بأشقائها الرجال.

الدوار: ديسمبر ٢٠٠٣ – يناير ٢٠٠٤

10 عندما ينتصر صوت العقل

زوجوها فى سن الرابعة عشر من أحد شيوخ القرية وكان قد قارب الستين وينتمى إلى عائلة أخرى وقد توفيت زوجته وتركت له ثلاثة أولاد بلغوا سن الرجولة وفتاتين على وش جواز أنجبت ولدين وحملت بالثالث ثم رحل زوجها بعد عدة شهور أنجبت بنتاً وأصرت على أن تكون ملابسها سوداء حداداً على والدها ولم تسمع لنصائح أهلها.

توفيت الطفلة بعد عامين بسبب سوء معاملة الأم التى اعتبرتها وش شؤم لأنها سرقت روح أبيها. كبر الولدان وانخرطا فى رعاية الأرض والبهايم وذات يوم غابت عنها الشمس، جاء الخفير كى يخبرها بأن ابنها البكر وجدوه مقتولاً فى الغيط، خرجت حافية تولول وخلفها نساء العائلة وأقسمت بأن تلقى بنفسها فى البئر منعوها بقوة وأحضروا لها أحد مشايخ القرية كى يقرأ على رأسها بعض الآيات القرآنية لتهدئ من روعها وينزل السكينة فى قلبها، علمت فيما بعد أن ابنها راح ضحية الشهامة دفاعاً عن أرض خاله التى كان يحرسها وكانت مطمعاً للعمدة الذى استحوذ زورا على أخصب الأراضى الزراعية بالقرية، وقد أمر العمدة رجاله بأن يتخلصوا من هذا الفتى العنيد وقد تم له ما أراد التف رجال العائلة حول الابن الباقى ونصحوه بالتريث والإنصات لصوت العقل ولم تهدأ الأم الثكلى إلا بعد أن أقسم لها الابن على المصحف أمام الرجال بأنه سيفوض أمر القصاص إلى الله المنتقم الجبار وتعهد لأمه بأنه سيتفرغ لعبادة الله، حيث انضم إلى إحدى الجماعات الصوفية

وانتظم فى حضور احتفالاتها السنوية ثم تزوج وأنجب سبعة أولاد وبنتا وعندما رحلت زوجته رفض أن يتزوج مرة أخرى وعكف على تربية أولاده حتى تخرجوا جميعهم فى جامعة أسيوط وجاء دورهم، كونوا أسراً جديدة وأنجبوا أطفالاً كثر امتلأ بهم الدوار صخباً وبهجة ولأول مرة أرقب فى عينية نظرة الرضا وهو جالس وسط أحفاده يحكى لى قصة مشواره الطويل الذى انتصر فيه صوت العقل على روح الثأر والانتقام.

الدوار: أكتوبر / نوفمبر ٢٠٠٤

obeikan.com

11 مهني وضحاياه

تضم البوابة ١٢ أسرة من عائلة القماحة الغربيين الذين يسكنون بالقرب من الجبل الغربى ويفصلهم عنه المقابر ويسكن القماحه الشرقيون فى شرق البلد... وترتبط الأسر بعلاقات القرابة والمصاهرة وينحدرون من جد واحد هو محمد أبو قميح الذى قدم من النخيلة منذ قرنين واستقر بالزرابى وكون مع أشقائه وأبناء عمومته فرعاً من البدنه الرئيسية فى النخيلة.

وفى أوائل القرن الماضى جاء مهنى الذى ينتمى إلى عائلة الدقايشة التى تقيم فى بحرى البلد ويتميز أهلها بالتمدين والرقى النسبى فى ملبسهم ومأكلهم وأسلوب حياتهم وذلك مقارنة بسائر عائلات القرية جاء مهنى وأقام منزلاً ضخماً وسط عائلة القماحة بتشجيع من عمته المتزوجة من أحد أعيان عائلة القماحة، ويروى شيوخ الأسرة أن الشاب مهنى وكان أمياً يمتلك وجهاً أبيض وتجمع ملامحه بين البراءة والسذاجة وقد رحب به آل أبو زيد حيث زوجوه أجمل فتيات الأسرة واسمها بيهة مكثت معه عدة سنوات أنجبت خلالها طفلين توفيا قبل إتمامهما العام الأول ثم أصيبت بمرض غامض وتوفيت فى عز شبابها، وجاء مهنى يبكى وجلس تحت أقدام عميدة العائلة الحاجة «نقطة» وأعرب لها عن خوفه من البقاء وحيداً، أو العودة إلى أقاربه الدقايشة الذين سيفرضون عليه أن يتزوج من بناتهم وهو لن يستطيع أن يتحمل طباعهم وغطرستهم واستعلاء نسائهم ورجاها أن توافق على زواجه من ابنتها الوسطى هانم لأن الكبيرة آمنة كانت قد تزوجت من ابن عمها

فاهم أفندى وذهبت معه إلى مصر. ترددت الحاجة «نقطة» وبعد التشاور مع أخواتها فى عائلة الحساسنة وافقت على زواج ابنتها هانم التى كانت تتميز بقوام سمهرى وعيون خضراء وشعر أسود يصل إلى منتصف ظهرها وقد عرفت بشهامتها ومساعدتها للأقارب والجيران، أقاموا لها عرساً بهيجاً يليق بالأسرتين فى ذلك الزمان وانتقلت إلى منزل الزوجية الذى لم يكن بعيداً عن منزل أبيها سوى خطوات معدودة.. مكثت مع زوجها مهنى سنوات قليلة أنجبت خلالها طفلين أو ثلاثة عاش منهم الصبى برعى ثم توفيت بمرض غامض واحتضنت الجدة «نقطة» حفيدها اليتيم عدة سنوات وجاء مهنى للمرة الثانية يرجوها بإلحاح أن يزوجوه كى يعمر البيت الذى خرب بعد وفاة زوجته الغالية هانم، كانت الضحية هذه المرة تفيدة الحفيدة الكبرى للحاجة «نقطة» وكانت من أجمل فتيات الأسرة وتلقت تعليمها وتربيتها فى مصر، تردد الأب فهمى بك المهندس المقاول الذى عرف بأعماله الخيرية وساهم فى بناء العديد من المشاريع من أبو سنبل إلى الإسكندرية وكان يحرص على تشغيل أبناء العائلة فى مشروعاته الكثيرة كما كان يصطحب أسرته كل عام لقضاء الأجازة الصيفية بالقرية وتحت إلحاح الحاجة «نقطة» التى كانت تصر على تزويج حفيداتها من شباب القرية من أجل العزوة وافق فهمى بك على تزويج ابنته تفيدة كانوا يعتبرونها درة العائلة جمالاً وعقلاً وحكمة.

تزوجت مهنى الذى يكبرها بثلاثين عاماً وكان الفرق بين عمرها وعمر الابن برعى لا يزيد عن أربعة أعوام عاشت معه سنوات قليلة أنجبت خلالها طفلين توفيا فى عمر الرضاعة ثم أصيبت بمرض غامض ورحلت وسط أحزان عميقة شملت العائلة بأكملها.. وعندما أصر فهمى بك على اصطحاب مهنى إلى مصر لإجراء كشوف طبية تبين أنه مصاب بمرض الزهرى الذى كان ينتقل منه إلى زوجاته

وأبنائه ولم يسلم منه سوى برعى الذى عاش وتزوج إحدى قريباته من عائلة الدقايشة وهكذا حصد مهنى حياة ثلاثة من أجمل وأذكى فتيات العائلة ليست بسبب المرض الخطير الذى كان ينقله إليهن ولكن أيضاً بسبب التقاليد الجائرة وعقلية الحاجة «نقطة» واستسلام فهمى بك لتقاليد ذلك الزمن الغابر.

الدوار: مارس – إبريل ٢٠٠٥

obeikan.com

12 ... وانقلبت الأحوال

فى إطار رحلاتى المكوكية إلى محافظات الصعيد لمتابعة تغطية محررى مجلة الدوار لأحوال أهالينا فى الجنوب أتيح لى أن أركب جميع القطارات المتجهة إلى وجه قبلى ما بين فرنسى وأسبانى ومجرى وعديم الهوية كما أتيح لى أن أرصد ما آل إليه حال هذه القطارات والتى أعتبرها مرآة تعكس مدى اهتمام الحكومة المركزية فى العاصمة بأحوال الصعيد وسكانه علاوة على دور الحكم المحلى الغائب فى أغلب الأحيان.

لقد تقلبت الأحوال بهذه القطارات وظلت أسيرة الإهمال الذى تمثل فى أحادية الخط وسوء أحوال السائقين والكمسارية وتدهور المرافق والتى تشمل المقاعد والمراحيض والأرضيات والشبابيك ولا يستثنى من ذلك العربات المكيفة فى الدرجتين الأولى والثانية ناهيك عن الدرجة الثالثة التى لا تصلح أصلاً لمن ينتمون للفصيلة البشرية ونظراً لما يتميز به أهالى الصعيد من صبر على المكاره وتطييب النفس بالأمنيات الوهمية ومحاولة تصديق التصريحات الوردية الصادرة عن الوزراء والمحافظين فقد صبروا طويلاً أملاً فى أن تستيقظ ضمائر صناع القرار سواء فى العاصمة أو فى إدارات الحكم المحلى ولكن صناع القرار كانوا فى واد آخر مشغولين بتثبيت كراسيهم وتدبير وتعظيم مغانمهم خلال فترة وجودهم فى مواقع السلطة ولذلك ظل وضع القطارات يتدهور من سيئ إلى أسوأ إلى أن وقعت حادثة قطر الصعيد الشهيرة عام ٢٠٠١ وخرج منها صناع القرار وكبار المسئولين سالمين غانمين بقدرة قادر وألقيت المسئولية كاملة على الصغار من الموظفين البؤساء

والعمال التعساء الذين توجه إليهم دائماً أصابع الاتهام والتقصير ويدفعون الثمن مثنى وثلاث ورباع وبرغم كارثة القطار وبرغم ارتفاع أسعار التذاكر بصورة غير مسبوقة إذ بلغت عدة أضعاف أقول رغم ذلك تدهورت الأمور وتواكب هذا التدهور مع تصاعد التصريحات الوردية من جانب المسئولين عن هذا القطاع الحيوى قطاع النقل والمواصلات فالخدمة داخل هذه القطارات لا تزال متدنية دورات المياه تطفح بالأوبئة والقذارة وجدران القطارات ونوافذها تضج بالشكوى من الإهمال وغياب النظافة والصيانة وعمال السكة الحديد صامتون يكسوهم الإحباط واليأس وتتحدث نيابة عنهم ملابسهم الرثة وليس غريباً أن نقرأ فى الصحف عن حوادث قطارات الصعيد بصورة أصبحت شبه دورية والسؤال متى تستيقظ ضمائر المسئولين عن قطارات الصعيد سواء الحكوميون أو قطاع الأعمال وهل ننتظر وقوع كوارث جديدة حتى ينتبهوا إلى هذا المرفق الحيوى الذى يربط بين القاهرة ومدن ومحافظات الصعيد حيث يقيم ويعمل وينتج ويسهم فى استمرارية هذا الوطن ما يزيد على ٤٢٪ من سكان مصر المحروسة؟ وإلى متى يظل أهالى الصعيد والمقيمون فيه يعانون من التهميش وإهدار حقوقهم كمواطنين؟

الأهرام مايو ٢٠٠٥

13 انكسار الحلم

منذ طفولتهم المبكرة جمعتهم دوائر اللعب في حواري القرية تشابكت أيديهم عندما كانوا يخوضون في برك المياه التي كانت تفصل بين غيط والدها مأذون القرية والغيطان الأخرى الممتدة عبر قريتهم حتي حدود القرية المجاورة والتي كان والدها العمدة قد اغتصبها زورا من خلال التهديد والتزوير في الأوراق الرسمية وإجبار الدلالين على الغش في قياس الأرض وشرائها بأبخس الأثمان من أصحابها المهددين بالإفلاس وضيق العيش .....كانوا يركضون خلف الحمير والأبقار تملأ صدورهم البهجة وتعكس وجوههم براءة الحياة ورحابتها ، كانوا يجوبون في غيطان الفول والبرسيم والذرة وعندما كان يشتد بهم الجوع كانوا يجلسون علي ضفاف الترع يتبادلون أعواد القصب والفول الحراتي وكانت ضحكاتهم البريئة تملأ فضاءات الحقول يتسابقون في الدوران حول السواقي بعيون مغطاة بالمحارم الصغيرة الملونة وكانوا يعودون إلي منازلهم عند غروب الشمس يتغامزون ويتمايلون وتتعالى أصواتهم بالغناء وأصوات المواويل « يا جريد النخل العالي ميل وارمي السلام » و«يا بهية وخبريني علي اللي قتل ياسين» و «يا وابور الساعة ١٢ يا مقبل على الصعيد .....»و « فجل في الجنينة أخضر وريان بعنا واشترينا حملنا الجمال » .

عشش في قلبه الصغير حب الفتاة الصغيرة رفيقة اللعب والبراءة كان يقول لوالده « لما أكبر حتجوز فاطمة بنت المأذون » كان والده يضحك بسخرية ويرد عليه « بس لما تكبر يحلها ربنا » كبر الفتي وذهب إلى البندر للدراسة أما الفتاة فقد

حجزوها في المنزل حيث تعلمت فنون الطبخ والخبيز وحلب البهائم ورعاية أسرتها الكبيرة فقد كانت أمها تلد في كل عام توأمين حتى بلغ عدد أخواتها ١٤ ولدا وكانت الابنة الوحيدة وسط غابة من الذكور

عندما بلغت عامها الخامس عشر زوجوها لابن عمها بكت طويلا ولكن لم يرحموا دموعها وحاولت أمها إقناعها بأن ابن عمها يحجب أي عريس خارج العيلة ولكن طوفان الذكريات أطاح بصحتها ووقعت فريسة المرض وتأجل العرس عدة شهور وتم زفافها قسرا إلى ابن عمها الذي كان يتميز ببنيته الضعيفة وصوته الذي يشبه أصوات الماعز نفرت منه الفتاة وتمنعت عليه وظل يشكوها لأمها التي بادرت بعرضها علي المشايخ في القرى المجاورة الذين بالغ بعضهم في مطالبهم وقد تراوحت بين الديوك الرومي والخرفان وأقمشة القفاطين الفاخرة أملا في فك العمل المعمول للفتاة ولكن دون جدوى فقد فقدت الفتاة شهيتها للحياة وضمرت روحها وتناقص وزنها إلى الثلث ثم انسحبت في هدوء ورحلت في يوم شتوي عمت غيومه على أرجاء القرية وعلم الفتى الذي كان يتابع أخبارها بحزن وأسى دفين ولكن ظروف الدراسة وجبروت والده منعاه من حقه في الدفاع عن حبه الوحيد خصوصا بعد أن أبلغه شقيقه الأكبر بالنوايا الشريرة للوالد الذي أقسم على حرمانه من الميراث فيما لو بدرت منه أية بادرة تفصح عن رغبته في الاقتران بهذه الفتاة

قرر أن ينتقم لنفسه ولفتاته قاطع أسرته وظل معتكفا في شقته الصغيرة القريبة من الجامعة ولم يقم بزياراته المعتادة للقرية طوال فترة دراسة الجامعة وبعد التخرج من كلية الهندسة قدم طلبا للهجرة إلى إستراليا تاركا الأرض التي احتضنت رفات الحبيبة ومواليا ظهره للقلوب القاسية والتقاليد الجائرة التي ظلمته هو وفتاته الراحلة.

الدوار: مايو / يونيه ٢٠٠٥

14 هارون الدلال

في ليلة دهماء وجدوه مقتولا أمام عتبة داره ، تناثرت الأقوال حول أسباب القتل واسم القاتل لم يكن للقتيل خصوم معروفون فهو لم يكن ينتمي إلى أسرة تحمل تاريخا في الثأر ولكنه كان مكروها من الكثيرين خصوصا هؤلاء الذين عانوا من اجتراءه على أراضيهم الزراعية بسبب عدم أمانته في أداء وظيفته فقد كان يعمل دلالا يقوم بقياس الأراضي الزراعية وتحديد زمام الملكيات والحيازة ويتحكم في الملفات والدفاتر التي تحوي كافة المعلومات والبيانات الخاصة بالزمام الزراعي للقرية كلها وأسماء مالكي الحيازات ومبادلات ورهون وكان يتقاضي أجورا باهظة ورشاوي خفية من أصحاب الملكيات الكبيرة كي يجور على أراضي الآخرين باقتطاع بعض القراريط لضمها زورا إلى زمام كبار الملاك نظير التمتع بحمايتهم وببعض ما يجودون به من أموال أو مواشي وكان أغلب ضحاياه من النساء والوارثات أو أبناء الأسر التي هجرت القرية وظلت تحتفظ بأطيانها وقد سقط العديد من القتلى عندما اكتشف بعض أبناء القرية الذين شاهدوا عمليات قياس الأرض تعاملاته وأساليبه الملتوية وعندما كانوا يصرون على إعادة القياس عدة مرات كان أهاليهم يعثرون على جثثهم مبعثرة وسط الغيطان في الأيام التالية وقد تكرر هذا الوضع المأسوي وطال العديد من خيرة شباب العائلات وأصبح شائعا في القرية ذهاب أمهات القتلى إلى أضرحة الأولياء والدعاء على هارون الدلال الذي تسبب بافترائه وجوره على أراضيهم في قتل أبنائهم وكانت أصابع الاتهام تتجه

دوما إلى العمدة ورجالاته من الاشقياء المأجورين الذين كانوا يقومون بتصفية أي شاب يعترض على عمليات القياس الظالمة التي كان يقوم بها هارون الدلال كما كانوا يعلنون على الملأ حمايتهم لهذا الهارون مهددين ومتوعدين أي شخص يجرؤ على إعلان احتجاجه على الظلم الذي لحق بكثير من الأسر وأضاع منهم أجزاء من أراضيهم يتم ضمها زورا إلى زمام العمدة وبعض معاونيه وأقاربه ورغم الغموض الذي أحاط بمقتل هارون الدلال إلا أن العديد ممن شاركوا في تشييع جنازته كانوا يهزون رؤوسهم في صمت مريب ويتبادلون النظرات التي تشي بما في صدورهم نحو هذا الرجل الذي نشأ يتيما وتبنته الكنيسة وأسبغت عليه رعايتها وعلمته القراءة والكتابة ثم تلقفه العمدة واحتضنه ثم استخدمه أداة مطيعة لنهب أراضي الأهالي تحت غطاء رسمي ظاهره المشروعية وباطنه السرقة والنهب .

الدوار: أغسطس / سبتمبر ٢٠٠٥

15 خواطر وذكريات انتخابات ١٩٨٤

شاركت فى انتخابات ١٩٨٤ ضمن قائمة حزب التجمع التقدمى الوحدوى عن دائرة جنوب أسيوط التى تضم ٦ مراكز: أبوتيج وصدفا والبدارى وبربا وأبنوب الحمام والباجور ونحو ٥٠٠ قرية. كان يشاركنى فى قائمة التجمع الشيخ سعيد جمال الدين ومحمود عباس من ساحل سليم. قمت بإعداد منزل جدى بقريتى الزرابى لعقد الاجتماعات واستقبال الوفود. وكان ينافسنى فى هذه الانتخابات أحد أقاربى من عائلة الحساسنة، وكان قد خاض تجربة الانتخابات السابقة (١٩٧٩) على قائمة حزب العمل الاشتراكى وكانت المنافسة حادة بينه وبين ممثل الحزب الوطنى (د. جمال العطيفى) وحسمت الانتخابات لصالح الأخير بعد أن تعرض محمود عبد العال لخسائر فادحة، حيث قاموا بحرق الغيطان وتسميم المواشى وتهديده فى حياته الأسرية حتى نجحوا فى إرغامه على تحويل انتمائه من حزب العمل المعارض إلى الحزب الوطنى الحاكم. كانت العلاقات العائلية الوثيقة تحتم التزام القيم واحترام التقاليد فى الدعاية الانتخابية ولكن العصبية العائلية لعبت الدور الحاسم فقد تكتل حوله عائلته لضمان وصوله إلى المجلس النيابى اتقاء لمزيد من الخسائر رغم عدم اقتناع أغلب أفراد هذه العائلة بمواقف الحزب الحاكم وتوجهاته فى ذلك الوقت.

كنت أتناول قهوة الصباح يومياً مع عمتى حفصة، وكانت تقترب آنذاك من الثمانين عاماً وتتميز بشخصية أسطورية فى صلابتها ونفاذ بصيرتها وقدرتها على التمييز بين نوعيات البشر وإعلاء كلمة الحق مهما يكن الثمن.. كانت عمتى تبادرنى

بالسؤال التقليدى (على فين العزم النهاردة؟) كنت أجيبها (على البدارى) حيث كان ينتظرنى ممتاز نصار المحامى وممثل حزب الوفد والذى كان يتمتع بسمعة برلمانية مشرقة وأصول عائلية عريقة فى البدارى. كانت عمتى تبتسم ثم تربت على كتفى فى حنان تشى به عيناها النافذتان وتقول: (انت صغيرة وجاهلة لازم تعرفى أن خصومك منتظرين يعرفوا خط سيرك علشان يعطلوك ويعملولك كمين أو يخلقولك أى مشكلة تشوه اسمك واسم عيلتك. الانتخابات يا بنتى حرب ولازم تصحصحى لها وتبقى عينيك زى الفنجان اوعى تقولى لحد خط سيرك ده سر لازم تحافظى عليه) كنت أرد بعفوية قائلة: (لكن مجموعة الرجال الذين يعملون معى لابد أن يعرفوا خط سيرى). كانت عمتى تبادرنى على الفور قائلة (ممكن تردى عليهم إن شاء الله ولا تقولى اسم المكان وتدى تعليماتك للسواق أول بأول).. ثم تعود عمتى إلى الحديث عن البدارى قائلة: (دول وفديين طول عمرهم لكن حيجبوك ويمكن يدبحولك دبايح ولكن مش حينتخبوك) وفى المرة الثانية كنت ذاهبة لقرية ديكران.. قالت عمتى: (كان عمدتها مشارك أبوك فى الزرع وحينتخبوك ما تخافيش).. ونصحتنى أن أذهب إلى النخيلة لأن جذورنا وأهالينا هناك ولما أخبرتها بأن منافسى هناك عزت محروس ويمت بصلة قرابة بعيدة لعائلتنا (القماحة) وكان ينجح بالتزكية على امتداد خمس دورات برلمانية وكان ينظر إليه على أنه ممثل الحكومة وليس ممثلاً لأهالى النخيلة. كانت عمتى ترد فى حسم وقد برقت بوادر الغضب والانفعال فى عينيها النافذتين وتقول (أهالى النخيلة مش حينتخبوا عزت محروس كفاية عليه خمس مرات الحكومة فى كل مرة كانت تساعده وتنجحه والناس زهقت وعايزه تغير اديهم فرصة وجربيهم).. وبالفعل ذهبت إلى النخيلة فى اليوم قبل الأخير وكانت درجة الحرارة ٤٢ درجة وكدت أصاب بضربة شمس ومع ذلك أعطونى ٩٧ صوتاً مقابل زيارتى التى لم تستغرق سوى ساعة واحدة.

كان المحافظ زكى بدر قد أعلن أسلحته الانتخابية لتشويه مرشحى المعارضة وكانوا ينتمون إلى أحزاب التجمع والعمل والوفد. قمنا بتشكيل جبهة من خلال التنسيق فى الجولات والشعارات وأعددنا أنفسنا لمواجهة مرشحى الحزب الحاكم فى المؤتمر الانتخابى الذى ختمنا به جولاتنا فى القرى والنجوع والحقول والمنادر والمضايف.. أعد زكى بدر السرادق الفخم فى ساحل سليم وكان قد أعد قائمة افتراءات وهجوم شرس ضد مرشحى المعارضة واستهل خطبته بالتهجم على ابنة الشيخ سعيد التى كانت موفدة فى بعثة علمية إلى موسكو لدراسة الرياضيات وقبل أن يكمل حديثه قفز مجموعة من أقارب الشيخ سعيد إلى المنصة وفى أيديهم الرشاشات وطالبوه بالتوقف وانتزعوا الميكرفون وبدأوا يسردون مهازل ومخازى الحزب الحاكم والشرطة فى أسيوط، ثم أسرع حرس المحافظ إلى إنقاذه بدفعه إلى الخلف وإخراجه من باب صغير فى خلفية السرادق وعند وصولنا إلى السرادق وجدنا الجميع فى حالة شديدة من الهياج والصخب وتبادل الشتائم وبدأنا فى إعداد بيان جماعى احتجاجاً على بذاءات المحافظ وهجومه غير الأخلاقى على مرشحى المعارضة. وفشل المؤتمر الانتخابى للمحافظ ثم بدأت الانتخابات فى اليوم التالى وانتهت بسقوط جميع رموز المعارضة ونجاح مرشحى الحزب الوطنى فى دائرة جنوب أسيوط.

الدوار - أكتوبر / نوفمبر ٢٠٠٥

16 قطارات الصعيد

فى إطار رحلاتى المكوكية إلى محافظات الصعيد لمتابعة تغطية محررى مجلة الدوار لأحوال أهالينا فى الجنوب أتيح لى أن أركب جميع القطارات المتجهة إلى وجه قبلى ما بين فرنسى وأسبانى ومجرى وعديم الهوية كما اتيح لى أن أرصد ما آل إليه حال هذه القطارات والتى اعتبرها مرآة تعكس مدى اهتمام الحكومة المركزية فى العاصمة بأحوال الصعيد وسكانه علاوة على دور الحكم المحلى الغائب فى أغلب الأحيان.

لقد تقلبت الأحوال بهذه القطارات وظلت أسيرة الإهمال الذى تمثل فى أحادية الخط وسوء أحوال السائقين والكمسارية وتدهور المرافق والتى تشمل المقاعد والمراحيض والأرضيات والشبابيك ولا يستثنى من ذلك العربات المكيفة فى الدرجتين الأولى والثانية ناهيك عن الدرجة الثالثة التى لا تصلح أصلاً لمن ينتمون للفصيلة البشرية ونظراً لما يتميز به أهالى الصعيد من صبر على المكاره وتطييب النفس بالأمنيات الوهمية ومحاولة تصديق التصريحات الوردية الصادرة عن الوزراء والمحافظين فقد صبروا طويلاً أملاً فى أن تستيقظ ضمائر صناع القرار سواء فى العاصمة أو فى إدارات الحكم المحلى ولكن صناع القرار كانوا فى واد آخر مشغولين بتثبيت كراسيهم وتدبير وتعظيم مغانمهم خلال فترة وجودهم فى مواقع السلطة ولذلك ظل وضع القطارات يتدهور من سيئ إلى اسوأ إلى أن وقعت حادثة قطار الصعيد الشهيرة عام ٢٠٠١ وخرج منها صناع القرار وكبار المسئولين سالمين غانمين بقدرة قادر وألقيت المسئولية كاملة على الصغار من الموظفين البؤساء

والعمال التعساء الذين توجه إليهم دائماً أصابع الاتهام والتقصير ويدفعون الثمن مثنى وثلاث ورباع وبرغم كارثة القطار وبرغم ارتفاع أسعار التذاكر بصورة غير مسبوقة إذ بلغت عدة أضعاف قول رغم ذلك تدهورت الأمور وتواكب هذا التدهور مع تصاعد التصريحات الوردية من جانب المسئولين عن هذا القطاع الحيوى قطاع النقل والمواصلات فالخدمة داخل هذه القطارات لا تزال متدنية دورات المياه تطفح بالأوبئة والقذارة وجدران القطارات ونوافذها تضج بالشكوى من الإهمال وغياب النظافة والصيانة وعمال السكة الحديد صامتون يكسوهم الإحباط واليأس وتتحدث نيابة عنهم ملابسهم الرثة وليس غريباً أن نقرأ فى الصحف عن حوادث قطارات الصعيد بصورة أصبحت شبه دورية والسؤال متى تستيقظ ضمائر المسئولين سواء الحكوميون أو قطاع الأعمال) عن قطارات الصعيد وهل ننتظر وقوع كوارث جديدة حتى ينتبهوا إلى هذا المرفق الحيوى الذى يربط بين القاهرة ومدن ومحافظات الصعيد حيث يقيم ويعمل وينتج ويسهم فى استمرارية هذا الوطن ما يزيد على ٤٢٪ من سكان مصر المحروسة؟ وإلى متى يظل أهالى الصعيد والمقيمون فيه يعانون من التهميش وإهدار حقوقهم كمواطنين؟

جريدة الأهرام ٢٠٠٥

17 عندما طال مرض الخال

فى عرس صعيدى مهيب تصدرته الخيول العربية تحمل على ظهورها مجموعة من شباب القرية يحيط بهم جوقة من عازفى المزمار ودقاقى الطبول احتفالاً بزفاف فارس بهى الطلعة بديوى ذلك الشاب الذى كان ينتمى إلى عائلة عريقة وليست ثرية والذى تزوج إحدى قريباته التى تنتمى لعائلة أخرى تماثل عائلته في الأصل العريق وفى منادر العائلة تعالت زغاريد النسوة اللواتى كن يحطن بالعروس التى تميزت ببنية ضخمة وملامح حادة تشى بشخصية قوية وامتدت الموائد العامرة بلحوم الخراف والطيور والفطائر والحلوى والفواكه واستمر الحفل ثلاث ليال وظل هذا الحدث لمبهج حديث القرية على مدى العام ثم انشغل بديوى فى رعاية أرضه وأرض زوجته التى ورثتها عن والدها ودارت الأيام والسنون وأنجب ثلاث فتيات ورثن ملامحه المضيئة الدقيقة وبشرته البيضاء المشوبة بالحمرة ماعدا الصغيرة التى أخذت عنه العيون الخضراء وأخذت من أمها البشرة القمحية ثم سرعان ما وقع فريسة المرض الذى لم يمهله طويلاً فرحل وقبل رحيله كان قد نصح زوجته بأن تستدعى خالها ذلك الشيخ الوقور والذى كان يتمتع بسمعة طيبة بين أهله وجيرانه حيث أوصاه على البنات وأمهن وأفصح له عن مخاوفه من أن تتعرض بناته للهوان من جانب أبناء عمومته فى حالة وفاته ودخولهم شركاء فى الميراث لأنه لم ينجب ولدا كى يصد الغرباء وطلب من الخال أن يبذل جهده كى يحمى حقوق الصغيرات فاقترح عليه الخال الوقور المعروف بتدينه أن يكتب له عقداً صورياً ببيع

الأرض وذلك تحسباً للظروف وحاول أن يطمئنه ويطيب خاطره مؤكداً له أنه سوف يشفى قريباً وسيقوم بنفسه بتمزيق هذا العقد.

ولكن عندما حان الأجل ورحل بديوى اصطحبت الزوجة صغيراتها الثلاث وذهبت إلى خالها تطالبه بإعطائها العقد الصورى أو تمزيقه أمامها. ظل يماطلها بحجة أنه يرعى لها الأرض ويمنحها كل موسم احتياجاتها من الغلال واللحوم والفاكهة والكسوة ويدس فى يدها مبلغاً ضئيلاً من المال يكفيها لتغطية نفقات المنزل ثم دارت الأيام وأصيب هذا الخال بمرض عضال، احتار فيه الأطباء. في هذا الوقت التف عقلاء العائلة حول الزوجة ونصحوها بأن تسرع فى أخذ العقد من خالها خصوصاً وأن له أبناء أشداء ويعوزهم الورع والتقوى ومن المؤكد أنها سوف تفقد الأرض نهائياً لو رحل خالها وعندما طال مرض الخال وأصبحت أيامه معدودة انزعجت الزوجة واصطحبت صغيراتها مرة أخرى وكانت صغراهن قد فقدت بصرها بسبب مرض الجدرى الذى أصابها ولم تلق الرعاية الطبية الملائمة إذ أصر الخال على عدم عرضها على الطبيب والاكتفاء بالوصفات البلدية.

دخلت الزوجة «الأم» على خالها الذى كان ممدا على فراشه يعانى من الوهن والضعف تحاصره أشباح الموت قلت له «يا خال أنك سوف تلقى وجه رب كريم وأنا أمامى مشوار طويل لتربية هؤلاء اليتيمات أتوسل إليك بحق جاه النبى الذى زرته ووقفت على شباكه أن تريحنى وتعطينى العقد أو تمزقه أمامى» ثم ارتمت على جسده وظلت تقبل يديه وتبللها بالدموع التى انهمرت كالسيل المتدفق، نظر إليها الخال بعيون كليلة ثم أخرج العقد من تحت المخدة التى كان ينام عليها ووضع الورقة فى فمه وابتلعها وضاع حق الزوجة «الأم» واليتيمات الصغيرات.

الدوار: يناير / فبراير ٢٠٠٦

18 عرس الدم

تجمعت النسوة وقد ارتدين أبهى ثيابهن وتناثرن فى البهو العلوى الكبير فى الدوار الذى يضم الأب والأم واثنين من الأبناء الذين تزوجوا وعاشوا وأنجبوا «صبيان وبنات» فى نفس الدار وجاء الدور على الابن الأصغر الذى اختاروا له عروساً من عائلة أخرى وكان يجلس فى صدارة المندرة، وقد تحلق حوله مجموعة من شباب العائلة كانوا يرتدون الجلاليب الصوفية وتلتف حول أعناقهم الكوفيات الكشميرية ذات الألوان الزاهية. أما كبار السن من رجال العائلة فقد ارتدوا الجبب والقفاطين وتتدلى من فوق أكتافهم الشيلان الصوفية، كانوا جميعاً فى انتظار وصول موكب العروس التى ما إن وصلت حتى تقدم شقيقها الأكبر ثم حملها وصعد بها إلى البهو العلوى، حيث تقع الحجرة المخصصة لها وانطلقت الزغاريد وتعالت أغانى الأفراح. كانت العروس شاحبة الوجه رغم كثافة الماكياج الذى امتلأت بها بشرتها وجفونها وخصوصاً أحمر الشفايف الزاعق الذى أضفى عليها مسحة أنثوية مفتعلة غطت على صغر سنها ولكن ظلت عيونها زائغة تعكس كما هائلا من الهلع والذعر الذى أصاب جسدها برعشة لا تخفى على العين. كانت حجرتها تتكون من سرير نحاس بأعمدة وقد تدلت منه ناموسية بمبية اللون تجاوره كنبة اسطمبولى مكسوة بقماش كريتون ذى ألوان نارية وتمتد أمامها ترابيزة صغيرة وفى نهاية الحجرة دولاب بنى بضلفتين ومرايا.

ويكسو أرضية الحجرة كليم مخطط بألوان بيضاء ونبيتى، ثم جاءت داية القرية

تصحبها اثنتان من المعاونات وكن جميعاً يتمتعن بأجسام ضخمة مخيفة. وقفت الداية على باب الحجرة وقد أمسكت بكوز مملوء باللبن وطلبت من العريس أن يضع أصبعه فى الكوز تيمناً بزواج سعيد ثم دس فى يديها ورقة بخمسة جنيهات، تركت الكوز على باب الحجرة واندفعت إلى الداخل للإشراف على إجراءات الدخلة وكانت المعاونات قد سبقنها وقمن بإجلاس العروس على الأرض فى منتصف الحجرة وطوقنها من الخلف وانفردت كل واحدة منهن بساق وذراع من ساقى وذراعى العروس ثم دخل العريس وقام بأداء مهمته التى انتهت بنزيف حاد أصيبت العروس على أثره بإغماءة طويلة وخرج العريس منتشياً يحمل فى يده منديلاً أبيض ملطخاً بدماء العروس ولمعت عيناه بالنصر ثم شق طريقه بين الزغاريد والأعيرة النارية التى انطلقت تعلن للملأ أن العروس بنت بنوت بكر لم يمسها إنس ولا جن من قبل ثم امتدت الطبالى زاخرة بطواجن اللحم والمرقة وصوانى البطاطس وأناجر البامية والملوخية وانهمك المدعوون فى التهام ما لذ وطاب من الطعام فى الوقت الذى غرقت فيه العروس فى بحر من الدم لم تفق منه قط.

الدوار – مارس/ إبريل ٢٠٠٦

19 ضابط شرطة من الزمن الجميل

تسابق أهالى القرية فى تزيين نقطة البوليس بالأنوار والأعلام الصغيرة الملونة، وتقدم بعض كبرائهم متوشحين بالشيلان الكشميرية والكوفيات الشائخة يحيط بهم بعض الغلمان ممسكين بقرون الخراف، وآخرون يحملون أقفاص الطيور ويلحق بهم جمع من النسوة يحملن فوق رءوسهن المقاطف والصوانى النحاسية الكبيرة التى تحوى طواجن اللحوم والكفتة والبط والديوك الرومى والرقاق والعيش الشمسى والكعك. تقدم الركب متجهاً إلى دار ضابط النقطة، حيث كان ينتظرهم فى الفناء وبصحبته بعض الضباط القادمين من القرى المجاورة مع الصولات والخفر، انطلقت الزغاريد مع توالى الوفود القادمة من المركز والمديرية والتى ضمت بعض العمد وكبار الموظفين وكثيراً من الأهالى، جاءوا جميعهم محملين بالهدايا وكانت تعلو وجوههم فرحة غابت طويلاً عنهم.

لقد جاءوا لتقديم التهانى إلى الضابط الذى عاد إليهم أخيراً وكان قد خدم فى قريتهم عدة سنوات ثم انتقل إلى قرية أخرى فى الصعيد الجوانى وظل أهل القرية يذكرونه طويلاً ويتذاكرون أفضاله وحسن خصاله ولا ينسون ليالى الشعر والذكر التى كانوا يقيمونها فى منادرهم احتفالاً بميلاد طفل جديد وظهور أحد أبنائهم أو ختمة، ترحما على الأموات أو إحياء لذكرى مناسبة دينية مثل مولد الرسول ﷺ أو عيد رأس السنة الهجرية. كان هذا الضابط لا يترك حفلاً أو جنازة أو وليمة أو جلسة تضم رجالات القرية إلا وكان أول الحاضرين، كم من المصالحات نجح فى

إتمامها بين عائلات القرية.

كان يداوم على حضور قداس الأحد فى كنيسة الأرثوذكس مرة، ويخص الكاثوليك بالزيارة التالية، لقد جاء القس يصحبهم الرهبان وألقى بعضهم قصائد مدح فى هذا الضابط الذى لم يجود الزمان بمثله.

فى أثناء فترة وجوده بالقرية هدأت النفوس واطمأن الأهالى وتوقفت حوادث الثأر وهرب اللصوص إلى القرى الأخرى، ونعمت القرية بأيام هانئة، ولم يكن يُسمع صوت الرصاص إلا فى مناسبات الزواج أو الفرح بعودة غائب.. وحرص نصف أهالى القرية على تسمية أبنائهم الذكور على اسم هذا الضابط، وقد فعل نفس الشيء فى القرى الأخرى التى انتقل إليها، وجاءت تقارير رؤسائه عنه امتياز عبر خمسة عشر عاماً أمضاها متنقلاً بين قرى ومراكز وبنادر الصعيد وعندما قرروا ترقيته نقلوه إلى العاصمة.

نفذ النقل وعاش أربعة أشهر فى القاهرة أحس بالغربة ولم يطق الزحام وغلاء الأسعار وجفاء البشر وغلظة قلوبهم ذهب إلى رئيسه راجياً نقله إلى الصعيد، تعجب الرئيس من هذا الطلب الذى لم يصادفه طيلة حياته الوظيفية وسأله عن الأسباب قال الضابط: «أرجوك أن ترحمنى من قسوة العاصمة، فهى مدينة بلا قلب لا تنبت فيها إلا أشواك الغدر والافتراء والمراوغة. إن أطفالى يحلمون كل يوم بالعودة إلى أحضان الطبيعة والاستقامة والشهامة التى أحاطنا بها أهالى الصعيد الكرام». وإزاء إصراره استجاب رئيسه ووافق على نقله إلى تلك القرية التى سعدت بعودته ولكن فى موقع وظيفى أعلى، وكان مقر عمله فى المحافظة، ولكنه آثر أن يكون مقر سكنه فى هذه القرية التى انتمى إلى أهلها وأنجب فيها أولاده الثلاثة.

الدوار: سبتمبر – أكتوبر ٢٠٠٦

20 || المهندسة سوسن

كانت الابنة الوحيدة لأب مزارع أنجب خمسة أولاد تعلموا القرآن فى كتاب القرية وتفرغ أكبرهم لمساعدة والده فى الزراعة، وواصل الآخرون تعليمهم.. التحق اثنان منهم بالمعهد الأزهرى، وانضم الاثنان الآخران إلى التعليم العام، حيث حصلا على الإعدادية من مدرسة القرية ثم استكمل الابن الأوسط دراسته فى المدرسة الثانوية بالمركز، واكتفى الآخر بالتعليم الصناعى المتوسط، وكان الأب يستيقظ يومياً مع آذان الفجر ويذهب للصلاة فى الجامع المجاور لمنزله ويعود ليتناول إفطاره: كوباً من الشاى مع قرقوشة صغيرة، ثم يحمل الغداء المربوط فى محرمة بيضاء مقلمة بخطوط زرقاء وكانت أم الأولاد تصنع له كحريتين «بيضتين» مسلوقتين وقطعة جبن قريش وثلاثة أرغفة قمح أو بتاو مخلط وبصلة كبيرة أو فصين لفت وفلفل مخلل لزوم فتح الشهية.. وعلى مدى أعوام طويلة كان هذا المشهد يتكرر يومياً كان الأب يخرج قبل طلوع الشمس حاملاً طعامه فى قفة صغيرة ويقطع حوارى القرية التى تبتعد مساكنها عن الغيط وعلى امتداد الطريق كان يتبادل تحية الصباح مع الرجال والصبية السائرين على الأقدام، وكان بعضهم يركب الحمير وعلى مشارف الأرض المزروعة قمحاً أو فولاً أو قطناً أو برسيماً كانت إشراقة الشمس تصافح وجوههم فيما كانت نسمات الهواء تتسلل إلى أنوفهم، فتهتز رؤوسهم انتعاشاً ونشوة فيلقون أمتعتهم القليلة ويبدلون ملابسهم، ثم تمتد أيديهم إلى الفؤوس يتلمسونها فى لهفة وشوق وكأنهم غادروها منذ سنين يزيلون ما علق بها

من شوائب الأمس ثم يستأنفون ملحمة العشق للأرض الطيبة.

وكانت الأم تبدأ رحلتها اليومية قبل شروق الشمس فى الحوش الخلفى وسط صياح الديكة ومأمأة الماعز ونهيق الحمار الوحيد وتقترب فى حذر من البقرة الكبرى تملس على ظهرها فى حنان ثم تربت على أذنيها وتلقى عليها تحية الصباح ثم تستدير لتبدأ عملية الحليب فى «سدرية»- إناء بيضاوى من النحاس- وتواصل بقية اليوم فى الخبيز وغسيل ملابس الأب والأولاد وإعداد طعام العشاء وتنهى يومها بالاستحمام وتغيير ملابس الشقا كما تسميها وتضع الكحل فى عينيها وأحياناً قليلاً من العطر إذا توفر وتستعد لاستقبال العائدين من الغيطان والمدارس ويهل الأب عائداً من الغيط عند الغروب ثم تبدأ الوصلة الثانية من الخدمة الشاقة التى تتوقف قليلاً بعد تناول العشاء، ثم تبدأ مرة أخرى مع مواكب الضيوف من الأقارب والجيران وأكواب الشاى والقهوة والكركديه وقراقيش الفايش وصوانى البلح والرمان.. كانت الابنة الوحيدة عوناً للأم، فهى ترعى الدجاج وسائر الطيور وتقوم بترتيب سرير أشقائها وكنس المنزل وإعداد الشاى والقهوة للضيوف وغسل الصحون والأوانى فتعثرت فى دراستها رغم ذكائها الحاد ولم يتحمل جسدها النحيل الجمع بين أعباء الخدمة المنزلية والواجبات المدرسية فسقطت فريسة المرض وزارتهم ناظرة المدرسة ونصحت الأم بتخفيف العبء عن الفتاة الصغيرة لأنها موهوبة ومجتهدة تحتاج إلى الرعاية. مرت الأيام وواصلت الفتاة تعليمها وحصلت على الإعدادية من مدرسة القرية بمجموع كبير يؤهلها لدخول الثانوى، تردد أبوها وصمتت أمها، ولكن شقيقها الذى التحق بكلية الحقوق جامعة أسيوط ساندها واستأذن والده لاصطحابها كى تقيم معه فى الشقة الصغيرة التى استأجرها بجوار الجامعة والتحقت بالمدرسة الثانوية المشتركة فى بندر أسيوط.. تفتحت مواهبها

وداومت على قراءة الصحف ومتابعة المناقشات بين شقيقها وأصدقائه، وكانت تذهب أسبوعياً للقرية بصحبة شقيقها وتعود محملة بالزاد والزواد من العيش الشمسى والطيور والزبدة والفايش والفريك وكان شقيقها سعيداً بوجودها معه لمهارتها فى تنظيم أوقاته وإحلال البهجة والاستقرار على حياته، وكان دائم التشجيع لها والاعتزاز بها وبذكائها أمام والديه ونالت الثانوية العامة علمى بمجموع كبير كالعادة، ثم التحقت بكلية الهندسة رغم معارضة أشقائها الآخرين، وتردد أبويها، لكن مساندة الشقيق الذى أصبح محامياً كانت الفيصل.. انضمت فور التحاقها بالجامعة إلى الأنشطة الثقافية والرحلات، ثم انتخبت أمينة لاتحاد الطلبة وكانت شعلة لا تهدأ من النشاط والتواصل مع زملائها وأساتذتها.. واحتفل والدها وأشقائها بمناسبة حصولها على بكالوريوس الهندسة وشارك أهل القرية فى هذا الاحتفال بالنقوط والذبايح من الخراف والجديان والعجول الصغيرة.. انتظرت قرار تعيينها وكانت فرحتها الكبرى عندما عينت فى الإدارة الهندسية بمحافظة أسيوط، وكانت أول مهمة أسندت إليها تصميم مبنى أول مدرسة ثانوية مشتركة للبنات والبنين فى قريتها. ياله من حلم تحقق أخيراً، الآن فقط سوف تفتح أبواب الأمل والتعليم الجامعى أمام فتيات القرية ولم تتمالك نفسها من الفرحة فانطلقت زغرودة طويلة.

الدوار: نوفمبر / ديسمبر ٢٠٠٦

21 الحاجة حميدة

كانت تستيقظ عند آذان الفجر وتتجه مباشرة إلى الحوش الكبير لإيقاظ البقارة والجمالة والغنامة وتعطى لكل منهم طعام يومه مربوطا فى محرمه باهتة تحوى بتاوتين وقطعة جبن قريش وبصلة كبيرة، ويبدأ كل منهم فى إيقاظ بهائمه النائمة يضعونها أمام مخاول التبن والبرسيم ثم يقودوهم إلى البتاتى المملوءة بالماء أمام البئر الرئيسى فى مدخل الحوش ثم تبدأ مسيرة المواكب البهائمية تتصدرهم مواكب الجمال ويليها البقر وفى المؤخرة الغنم. وبعد أن تطمئن الحاجة حميدة إلى خروجهم تتوجه على الفور إلى إيقاظ خدم البيت بخيتة ورخام ومغربية الذين يسارعون إلى طشت المياه الموجود فى قلب الدوار القبلى يغتسلون ثم يقومون بتحضير البتاو وبقايا العدس أو المدمس البايت وأحياناً إلى بلاليص المش يغرفون منه مع البصل وفى ذلك الوقت تكون الحاجة قد سبقتهم إلى الدوار الكبير لإعداد الشاى والقراقيش للحاج الكبير أما الحاج الصغير الابن الوحيد فقد كان لا يزال نائماً مع غندورته فى البيت الصغير الذى أعده لها خصيصاً لأنها تربت فى البندر وتعودت على حياة الرفاهية مع والدها المهندس كبير الأسرة والمتعلم الوحيد الذى أرسله والده إلى العاصمة مبكراً وتفوق فى دراسته ونال شرف الالتحاق بالمهندسخانة التى كانت مقصورة على أبناء الخواجات ثم سمحت السلطة الخديوية والاحتلال البريطانى بقبول عدداً قليل من المصريين أبناء العائلات المعروفة.

كانت الحاجة حميدة تتميز بذكاء حاد وتمتلك قواماً ممشوقاً ووجه جميل يحمل

عيوناً خضراء تمتزج فيها أشجان ودهاء المرأة الصعيدية وتعكس إصرار وإرادة حديدية، أحضرها أشقائها من القرية البعيدة حيث كانت متزوجة من أحد أثريائها وبعد ترملها قررت أن تكرس حياتها لوحيدها ورفضت الزواج من شقيق زوجها قرر أشقائها أن يزوجوها للحاج الكبير المزواج بعد أن رحلت زوجته شقيقتها تاركة ولد وبنت وخشى أخوالهم من مجيء زوجة أب تلتهم الثروة وتهدد أبناء شقيقتهم بالحرمان منها جاءت الحاجة حميدة محملة بوصايا أشقائها، وسيطرت على الحاج بأنوثتها الطاغية ومخزون دهائها الأسطورى ومسلحة بخبرات مريرة اكتسبتها من تجربة زواجها الأولى.. سيطرت على الجميع استغلت فقراء الأسرة وجندتهم لخدمتها وزوجت الابنة اليتيمة لأحد شيوخ القرية الذين ينتمون إلى عائلة أخرى وانفردت بالصبى الذى تمرد على سطوتها وإصرارها على تزويجه من ابنة شقيقها المقيم فى أحد المدن الساحلية البعيدة وأصر الفتى على الزواج من ابنة عمه البندرية الرقيقة التى كان قد وقع فى غرامها منذ طفولته المبكرة تردد والدها فى البداية ثم وافق بعد تدخل كبار نساء ورجال الأسرة وعمد البلاد المجاورة وأخرجوا الفتاة من المدرسة وألقوا بها فى أتون الجحيم عملا بالمأثورات الشائعة فى قريتهم «قيد بنتك بقيد حديد وارميها فى بيت السعيد» والمقصود بالسعيد الرجل الثرى وبعد قليل بدأت المعارك بين الفتاة الملائكية تربية المدارس وبين الحاجة حميدة المتجبرة والمستأسدة وصاحبة القول الفصل فى أى رغيف خبز يخرج من الدار، فشلت الزيجة بعد سنوات مريرة من الصراع وانتصرت الحاجة وانتهت الملحمة بخروج الزوجة من المنزل وفى يديها طفلين صغيرين بعد أن فقدت خمسة من أبنائها نتيجة إهمال الأب فى علاجهم ورعايتهم وأقسمت الزوجة على الطلاق وفشل أهلها فى إثنائها عن قرارها واحتمت بشقيقها الطيار الذى ورث أعمال والده المهندس واحتضن شقيقته وطفليها، كان لها ما أرادت وتفرغت الحاجة لإحكام

سيطرتها على الحاج الصغير الذى اعتبرته ابنها المدلل وظل يتنقل بين الزيجات لفاشلة حتى بلغ عددهم ثمانية كان قرار اختيار هؤلاء الزوجات التعسات يتم موافقتها وكان قرار إنهاء زيجاتهم يتم بإشارة منها خسر الرجل الذكى نفسه بعد أن سلم مفاتيح حياته للحاجة حميدة وخسر الاستقرار والأمان الأسرى بعد أن تبددت جل سنوات عمره فى التنقل بين الزوجات الشقراء والحمراء والسوداء والبنية ثم حل دون أن يتحقق حلمه فى الأمان الأسرى ولكن تمكنت زوجتاه الأولى والأخيرة من تربية الأطفال أهدت الأولى للمجتمع ابنة وابن حاملين لدرجة لدكتوراه وأهدت الأخيرة ثلاثة فرسان خبراء فى الكيمياء وإدارة البنوك.

الدوار - يناير / فبراير ٢٠٠٥

22 عيوشة وأرغفة الخبز

تقلبت فى فراشها وعند سماعها صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر هبت مذعورة وفركت عينيها وأسرعت إلى سطل المياه وملأت كفيها بحفنة غمرت بها وجهها كى تطرد بقايا النعاس ووضعت الطرحة على رأسها ثم هرولت إلى حوش البهايم المجاور لإعداد أوانى الحليب وإيقاظ الصبية النائمين لمساعدتها فى الإمساك بالبقر أثناء عملية الحليب، تنبهت إلى صوت زوجة عمها الجهورى الذى تعودت عليه منذ سنوات تستحثها على الإسراع بإنهاء الحليب استعداداً لباقى المهام اليومية الشاقة التى تبدأ بإخراج البهايم للذهاب إلى الغيط ثم التفرغ لتنظيف الحوش وملء الأزيار وغسيل المواجير وإحضار مقاطف الطحين من حجرة الخزين والحفاظ على الخميرة وحمايتها من التهوية، كان الخبيز ثلاث مرات فى الجمعة «الأسبوع»، وهناك نوعان من العجين القمح لأسياد الدار وأولادهم والذرة للشغالين أربعة مواجير للقمح وستة مواجير للذرة لملء أفواه البقارة والجمالة والغنامة والشغالات اللواتى يبدأن من الفجر حتى صلاة العشاء فى الحليب والغسيل والخبيز والمساعدة فى أعمال الطبخ مع خدمة الحاج وأولاده وضيوفه شاى وقهوة وفطور وغداء وعشاء، إلخ.

جلست عيوشة أمام أكبر المواجير وبجوارها باقى الفتيات أمام المواجير الأصغر وبدأت ملحمة العجين، ثم تلتها عملية التقريص على المطارح المغطاة بالردة، ونقلها إلى السطوح كى تخمر فى الشمس، وفى ذلك الوقت يتم إعداد الأفران بحشوها بالوقيد وتنظيف سطح الفرن «البلاطة»، صرخت إحدى الفتيات «جعانة يا ناس

مافطرتش»، تذكرت عيوشة أنهم جميعاً لم يفطروا، وهذه عادة الحاجة التى تصر على أن ينتهوا من أعمالهم أولا ثم يأكلون فى نهاية اليوم الفائض من طعام الأسياد مع العيش الدرة إذ محرم عليهم أن يتذوقوا العيش القمح الذى يعجنونه ويخبزونه خوفاً من أن يعتادوا عليه كما تقول الحاجة.

صعدت عيوشة إلى السطوح لتقليب الأرغفة بعد التأكد من انتفاخها دليلاً على اختمارها، واستطلعت من الفتيات أن الأفران جاهزة بعد الانتهاء من خبز الرصة الأولى، غافلت عيوشة الفتيات وأخفت داخل جلبابها رغيفين واتجهت إلى الحائط الغربى المواجه للفرن ونادت على أحد أشقائها وكان يلعب فى الممر الضيق الذى يفصل بين منزل الحاجة عن منزل ابن عمه المجاور له، ألقت عيوشة بالرغيفين، لم ينتبه شقيقها للنداء ولم يلتقط الرغيفين وتصادف مرور زهيرة الشريرة ذات الجسم الضخم والتى تنتمى إلى عائلة الحاجة من بعيد، صاحت بأعلى صوتها «الحقى يا مراة عمى بيتك اتخرب» خرجت إليها الحاجة بعد أن قطعت الصلاة وقد امتلأ وجهها بكم هائل من الفزع الممزوج بالغضب أخذتها زهيرة الشريرة من يديها وذهبت بها إلى الممر الضيق وأشارت إلى الرغيفين الراقدين على الأرض وأخبرتها بالحكاية، هرولت الحاجة إلى الداخل وقفزت على السلالم رغم كبر سنها وضخامة جسمها وظلت تسأل الفتيات عن عيوشة وعلمت أنها ما تزال فى السطوح، انطلقت نحوها وهى تلهث وتحاول التقاط أنفاسها دون جدوى، وانهالت عليها ركلا وصفعاً ثم امسكت بضفائرها وسحبتها على السلالم ثم ألقت بها خارج المنزل، مكثت عيوشة فى منزلها ولم تبارحه بعد أن تورم جسدها وانتفخت عيناها وأنفها ولم تسأل عنها الحاجة بل ظلت تروج فى مجالسها قصة الرغيفين وتضيف إليهم من خيالها، حتى أصبحت حدوتة تتداولها النسوة فى الأسواق والغيطان وأمام

الآبار وعلى ضفاف الترع، كانت زوجات أغنياء القرية يعلقون بغطرسة واستنكار «تستاهل عيوشة ليه تمد إيدها على عيش أسيادها»، أما فقيرات القرية فكن يزممن شفاههن فى أسى ويتصعبن قائلات «الفقير مالوش سند، الرحمة خلصت يا ناس من البلد، حسبنا الله ونعم الوكيل».

الدوار - فبراير / مارس ٢٠٠٧

obeikan.com

23 خطوبة حميدة بنت درويش

استقبل الحاج على درويش ضيوفه القادمين من قرية الحواتكة وكان قد أصدر تعليماته بذبح خروف وجديين وإعداد غذاء فاخر يليق بمكانة الضيوف، وعلى الفور بدأ الخدم فى تنظيف المندرة الكبيرة وإعادة رص الدكك وفرشها بالأكلمة الصغيرة الملونة والمساند القطنية وتلميع الأباريق النحاسية ورش الأرض بالمياه وري شجيرات الريحان والنعنع واستدعاء السقايين لملء الأزيار الثلاثة التى تتصدر الباب الخارجي للمندرة. كما بدأت النسوة فى تسخين الأفران والكوانين لإعداد الخبز الطازج والفطائر التى اشتهرت بها قرية العدر وطهو لحوم الخراف والجديان، وأضافت سيدة الدار بعض الطيور من الحمام والبط المحشوة بالفريك. وعند منتصف الظهيرة هل موكب الضيوف يتقدمهم الشيخ محفوظ عين أعيان الحواتكة يحيط به أشقاؤه الأربعة وقد أرتدوا أبهى ما لديهم من قفاطين وشيلان مطرزة تعلو وجوههم مسحة من الشموخ والكبرياء ويحيط بهم رهط من العبيد المبندقين لزوم الأبهة وكان فى استقبالهم الشيخ على درويش وأبناؤه الثمانية وحشد من كبار رجال العائلة. كان الاستقبال مهيباً وجلس الجميع ثم توافد الخدم يحملون أكواب التمر هندى والكركديه على صوانى فضية مزخرفة وبعد تناول مشروب الضيافة وتبادل آيات الترحيب والأشواق امتدت الموائد العامرة بالأطعمة وانهمك الجميع فى ثرثرات ودودة وعلت أصواتهم عند الحديث عن الحيازات الزراعية وجودة الأراضى وأسعار المحاصيل والمستشفى الذى افتتح حديثاً بأسيوط ومدرسة

الأمريكان التى لا يشجعون أبناءهم على الالتحاق بها بل يفضلون عليها المعهد الدينى فى بنى عدى وزواج الأبناء والبنات واحتمال انتقال العمدية من بيت فلان والفلاحين الذين ذهبوا للمشاركة فى حفر قناة السويس ولم يعودوا وتركوا أبناءهم وزوجاتهم على باب الله.. وبعد الانتهاء من تناول الطعام جاء الخدم مرة أخرى بالصوانى الفضية تعلوها أكواب الشاى المنعنع والقهوة وأباريق المياه المقطرة والتى تفوح منها رائحة ماء الزهر. اعتدل الشيخ محفوظ فى جلسته وبدأ الحديث الذى توجه به إلى الشيخ على درويش طالباً يد إحدى بناته لابنه الأكبر محمد. تنحنح الشيخ على ثم قال بابتسامة ودودة (هذا شرف كبير لينا وللعيلة كلها ولكن بناتى كلهم محجوزين لأولاد أعمامهم وأنت سيد العارفين يا شيخ محفوظ البت عندنا محجوزة لولد عمها ويقدر ينزلها من على الجمل فى يوم عرسها لو تجرأ واحد غريب وخطبها).

انقلب المجلس واختفت روح البهجة التى سادت أركانه منذ قليل وفجأة جاء أحد الخدم وهمس فى أذن الشيخ على الذى استأذن المجلس وهرول مسرعاً إلى الرواق العلوى كى يستفسر عما حدث. انتحت به جانباً الحاجة زوجته وأسرت إليه ببعض الكلمات ثم عاد الشيخ إلى المجلس واستأنف الحديث قائلاً (عفواً يا حاج محفوظ مقامكم فوق رأسى أنتم فى الأصل أخوال أبويا وتربطنا بكم قرابة ونسب قديم ويشرفنى نسبكم ولكن ليس لدى سوى البنت الصغيرة حميدة ولسه قدامها كتير عالبال ما تبلغ السن القانونية للزواج) قاطعه الشيخ محفوظ قائلاً: (سوف ننتظرها ولو عشر سنين جاية إيه رأيك؟) هب الشيخ على واقفاً ومد يده إلى الشيخ محفوظ قائلاً: (اتفقنا نقرأ الفاتحة الآن) ثم تعالت الزغاريد ونزلت صوانى الشربات من الرواق العلوى.

الدوار: إبريل / مايو ٢٠٠٧

24 العار والضحية

كانت مثار حديث النسوة فى إحدى جلسات العزاء التى تعد بمثابة الفرصة الوحيدة المتاحة لهن للفضفضة والتخلص من الهموم الكثيرة التى تملأ القلوب المثقلة بتراث عريق من القيود والمحظورات والتكتم والحرمان من البوح والمصارحة.

قالوا «غلبانة ضوية فقدت بنتها البكر وأخوها فى شهر واحد» والأدهى والأمر أنها فقدت عقلها وهجت من البيت وقاعدة جنب الجامع تبكى وقاطعة الزاد وحلفت أنها تنتقم من اللى ظلموها ويتموا ولاد أخوها، فلما استفسرت من بعضهن عن حقيقة الموضوع ترددن فى الإفصاح ثم تقدمت إحداهن وجلست بجوارى وهمست بصوت خافت قائلة «إنت عارفة أن ضوية تهجلت – أى ترملت – بدرى وعاشت تكافح وتربى ولادها بنتين وولدين الأولاد راحوا مصر على رزقهم وفضلوا البنات فاتهم سن الزواج والشهر اللى فات لاحظت ضوية أن البنت البكرية بطنها كبرت وعرفت منها أن المحظور حصل، لطمت على وشها وأهالت التراب وشيعت مرسال لأخوها فى الغيط أنه يحضر حالاً علشان فيه مصيبة حصلت.

جاء الأخ مهرولاً فى المساء ولما علم بالأمر اتفق مع ضوية على التكتم لحين التخلص من هذا العار وحضر فى الفجر ومعه أبناؤه الثلاثة بعد أن تركت لهم ضوية الباب مواربا وتسللوا إلى الخزانة الجوانية حيث كانت ترقد الفتاة وأختها

وقاموا بخنق الضحية ثم حملوها إلى المقابر ودفنوها قبل طلوع الشمس وأشاعت ضوية فى القرية بأن البنت سافرت إلى مصر لخدمة إخواتها ولم يمر أسبوع حتى وجدوا خال الضحية مقتولاً وقد فصلت رأسه عن جسده ولم يعرف بعد من هو القاتل، تناثرت الأقاويل والتخمينات ربما يكون الجانى الذى اغتصب الضحية انتقم لها بقتل خالها وأشارت أصابع الاتهام إلى أحد شباب القرية الذى وجدوه محموماً يهذى بين الحقول وينطق باسم الضحية.

علقت إحداهن قائلة «ضوية مش حزينة على بنتها لأنها تستاهل علشان فرطت ولكن الحزن الأكبر على شقيقها الوحيد وبيته اللى اتخرب وولاده اللى اتيتموا».

وردت عليها امرأة مسنة يكسو وجهها مسحة من الجمال الرائق قالت «حرام عليكم يا ناس ليه تظلموا البنت وتركبوها العار وحدها الراجل مسئول زيها وهى البنت لها شرف والراجل مالوش شرف؟ العار طايلنا كلنا رجالة ونسوان علشان تعرفوا الحقيقة وتحودوا عنها تدافعوا دايما عن القوى وتنصروه على الضعيف وده ضد الشرع والدين».

تعالت أصوات النساء بالاحتجاج وامتلأت القاعة بالضجيج وتناثرت التساؤلات المشحونة بالغضب من المظلوم ومن الظالم.. وهل من العدل أن البنت الضحية تدفع حياتها ثمناً لخطيئتها ويعفى شريكها فى الخطيئة من العقاب؟!

الدوار: يوليو – أغسطس ٢٠٠٤

25 || هاشم حمد

نشأت صنصف يتيمة الأب وبعد رحيله تزوجت الأم الشابة وتركت الطفلة مع شقيقها همام الذى كان يصغرها بعامين.. وعندما بلغت صنصف التاسعة من عمرها تخلص الأهل من عبئها بتزويجها من أحد أقاربها وكان يكبرها بعشرين عاماً وكان ينتمى إلى الفرع الكادح الفقير فى عائلة ممتدة الفروع تتباين فيها أطياف الفقر والغنى وإن كان يجمعهم جد واحد ترجع أصوله الأولى إلى قرية النخيلة وكان يقطن فى منزل يشغل مترين عرضا وعشرة أمتار طولاً وهو عبارة عن شريط طويل ضيق يفصل بين بيت الحاج عبد الرحمن ومنزل فهمى أفندى أبو زيد وكان الزوج يعود من الغيط عند غروب الشمس فلا يجد الزوجة الطفلة فقد كانت تلهو مع رفيقات اللعب فى الرهبة ولم تكن تعلم شيئاً عن واجبات الزوجية أو إعداد الطعام للزوج المكدود.

مرت السنون وأنجبت صنصف ابنتها البكرية حكمت ثم قرر الزوج الرحيل إلى حلوان بحثاً عن مصدر أوسع للرزق. ظلت صنصف تحلم أن تنجب ذكراً كى يكون سنداً لبناها الثلاث وأخيراً استجاب الله لدعائها وأعطاها غلاماً جميلاً ذكياً أسمته هاشم وكانت تفخر بأنها لا تؤكله العيش مثل باقى أخوته ولكنها ربته على الأرز اعتقاداً منها أن الأرز أفضل وأرقى من العيش وظلت ترضعه من صدرها وتعامله كطفل حتى بلغ سن الرابعة وخوفاً من الحسد كانت تلبسه ملابس الفتيات وتذهب به على الكنيسة وفاء للنذر وتحاول إخفائه عن أعين الأقارب والجيران وتدعى أنه بنت وقد حرمته من التعليم خوفاً عليه من خطر الاختلاط بالأولاد

الأشقياء ولذلك نشأ هاشم أمياً ولكنه كان يملك حساً مرهفاً وذكاءً غير معهود فى أسرته كما كان محباً لأهل قريته رغم أنه لم يترعرع بينهم ولكنه كان يداوم على المشاركة فى أفراحهم وأحزانهم رغم أن ذلك كان يكبده الكثير من الجهد والنفقات. عمل هاشم بائعاً متجولاً فترة طويلة من الزمن وأصبحت له شعبية بين أقرانه من صغار الباعة الجائلين. كان يتميز بقدرة فائقة على تصفية الخلافات بين الباعة محاولاً إعلاء صوت الحكمة وترجيح كفة التسامح واستطاع أن ينال ثقة الشرطة واحترامهم وكان غالباً ما يقوم بدور الوسيط بينهم وبين الباعة عندما كانت تتأزم العلاقات بينهم بسبب عجرفة وسطوة رجال الشرطة وعناء هؤلاء الباعة وإصرارهم على عدم دفع الإتاوات المفروضة عليهم من عساكر البلدية كما يسمونهم. تزوج هاشم وأنجب عدة بنات وكان كريماً عطوفاً شديد السخاء مع أهالى الحى دائماً يتقدم صفوف المشيعين ويتقبل العزاء كواحد من أهل المتوفى وفى الأفراح كانت هدية للعرائس ذبيحة «خروف أو جدى» ونقوط فى الصبحية وعندما هاجمته الأمراض السكر والكبد كان يتحامل على نفسه ويذهب يومياً إلى السوق كى لا يحرم محبيه من حضوره الحنون وتدخلاته الحكيمة وعلى حد قوله كى لا يحملهم فوق طاقتهم بزيارته ومجاملته فى منزله وعندما اشتد عليه المرض حمله محبوه من جيرانه إلى قصر العينى وأحاطوا به يحاولون دفع شبح الموت عنه. وفى صبيحة أحد الأيام اخترقت سكون الحى صرخة حارقة مكلومة من إحدى نساء الجيران وسرى الخبر الحزين وتوقف العمل بالسوق حداداً على رحيل هذا الإنسان البسيط الذى لم تفارق الابتسامة وجهة المضيء بالحنان والمحبة والتسامح رغم قسوة الظروف التى أحاطت به وكانت المفاجأة الأليمة عندما اكتشف إخوانه أنه لم يترك لبناته شروة نقير ولكنه ترك لهم مخزوناً لا ينفد من محبة الآخرين.

الدوار: نوفمبر – ديسمبر ٢٠٠٨

26 || ولد العمدة

تزوجت صغيرة كان عمرها لا يتجاوز ثلاثة عشر عاماً انتزعوها من ساحات اللعب مع أقرانها فى القرية قرر والدها تزويجها لزوج عمتها التى توفيت منذ عام وتركت أربعة أطفال يتامى يحتاجون للرعاية.. كان زوج العمة ملتصقاً بالأسرة لا يفارقهم إلا عند المبيت، كانت الفتاة تلهو مع أبناء عمتها وكان أكبرهم واسمه برعى يقاربها فى العمر وكان ضيوف والدها يجلسون فى المندرة البرانية يتجاذبون أطراف الحديث عن الأرض وأسعار التقاوى، وارتفاع أسعار الكيماوى ويسبون ويلعنون تصرفات الخواجة تادرس الذى كان يقوم بتخزين التقاوى ولا يبيعها إلا بعد أن ترتفع أسعارها كما أنه كان يقرض بالربا وفجأة انقطع الحديث بعد أن اقتحم المجلس ثلاثة رجال من وجهاء القرية يتقدمهم ابن العمدة وكان يتمتع بحظوة ومكانة خاصة لدى والد الفتاة لأنه كان شريكه فى الزرع وتجارة القطن.

انتفض الجميع وقفوا لتحية الضيوف ثم عادوا للجلوس مفسحين أماكنهم كى يتصدر ابن العمدة الجلسة وكان يتمتع بروح الفكاهة وافتتح الحديث ببعض النكت والطرائف التى لا تخلو من الغمز واللمز على بعض أفراد العائلة المنافسة لهم على مقعد العمدية وأثناء شرب الشاى نظر إلى والدُ الفتاة بصوت ودود (انتوا ليه مدوخين الراجل الطيب ومبهدلين عياله اليتامى) استفسر الوالد منزعجاً تقصد مين؟ اجابه ابن العمدة (طبعاً أنت عارف أقصد مين.. جوز المرحومة أختك ليه ما تحاولوش تشوفوا له عروسه تعمر له البيت وتربى له أولاده).

أجاب الوالد بعد أن بلغ ريقه واستعاد هدوءه «وهى فين العروسة التى ترضى بعياله»، رد عليه ابن العمدة «العروسة موجودة فى بيتك وتقدر من بكرة تكتب عليها ليه ما تجوزهوش خديجة بنتك» اكفهر وجه الوالد ورد بحدة غير متوقعة (دى طفلة صغيرة ما تقدرش تشيل الحمل الثقيل «ده» وفى هذه اللحظة بدأ الضيوف يتدخلون فى الحديث مؤيدين وجهة نظر ابن العمدة قالوا: (أمهاتنا وأخواتنا اتجوزوا فى سن بنتك وأصغر كمان وتعلموا وخلفوا أولاد وعمروا بيوت، هى بنتك على رأسها ريشة)؟ أصابت الوالد رعدة ثم انتفض مستأذناً وهرول إلى داخل البيت وجلس فى المندرة لجوانية ولم تسعفه قدماه للصعود إلى الدور العلوى ونادى بصوت حزين زوجته التى أسرعت إليه وهى تحمل كوباً من الماء: مالك ياخويا بعد الشر عليك هما الرجالة زنجوك فى الكلام.

أخبرها بالموضوع لطمت على وجهها وخبطت صدرها ثم قالت: (حنعيده من تانى – كفاية من الدست مغرفة).

نظر إليها الرجل بعيون مليئة بالخذلان والأسى قائلاً لكن دى رغبة ولد العمدة وأنت عارفة المصالح اللى تربطنا بيه ومش عايز أكسر له كلمة.

انفجرت الزوجة فى البكاء وأخذت تتمتم بكلمات غير مفهومة مثل (ياميلة بختك يا بنتى حيجوزوك واحد أكبر من أبوكى وتشيلى هم عياله وبلاويه ده حتى ظلم ما يرضاش بيه لشرع ولا الدين).

شرب الرجل كوب الماء واستعاد أنفاسه ثم خرج إلى المجلس كى يواصل ترحيبه بضيوفه. اشرأبت الأعناق واتجهت الأنظار نحوه متوقعين أن يقول شيئاً.

اتخذ مكانه على الأطراف وواصل الحديث قائلاً (خلاص على بركة الله حتجوزوا خديجة لعمها أبو برعى) ران الصمت على المجلس لبضع دقائق ثم عادوا

إلى الثرثرة والتعليق على هذا الموقف استحسن بعضهم هذا القرار ولكن عبر أغلبهم عن استنكارهم بانفعالات غاضبة ارتسمت على وجوههم واستأذن معظمهم وخرجوا من المجلس وفى آخر الليل عاد الرجل إلى البيت وكان قد أحس بجوع شديد وجد زوجته منزوية فى حجرة الخزين نادى عليها لم تجبه وجاءت ابنته خديجة تحمل صينية الأكل وقالت له أمى عيانة ومقهورة علشان حتجوزنى لعمى أبو برعى بادرها والدها قائلاً (وأنت إيه رأيك) قالت (اللى تشوفه يابويا أنا ما أقدرش أخرج عن طوعك ولا أخرب لك مصالحك مع ولد العمدة).

الدوار: أغسطس – سبتمبر ٢٠٠٧